التكميل
فى
أصول التـــاويل

٥

التـاويل لا يمكن فصله من النظام ، فانهما مخلوطان . و إنما أردت أولا بيـان النظـام فاضطرنى إلى التاويل ، ثم وجدت فـيه خيراً كثيراً ، فان به يكشف عن معنى القرآن و يبطل الأضاليل ، فساقنى الجدول إلى عباب البحر .

(الفراهى رح)

الفرق بين هـذا الـكتاب و كتـاب «إحكام الأصول باحكام الرسول» .(١)

إن هذا مختص بالدلائل الماخوذة من القرآن و صريح العقل ، و لا يبحث إلا عن ما يتعلق بفهم معنى الكلام وتاويله . وذلك يبحث عن أصول استنباط المسائل ، ودلائله جلهـا ماخوذة من الحديث . و مع ذلك يوخذ المؤيدات بعضها من بعض .

(الفراهى رح)

(١) هذا كتاب غير مطبوع للامام الفراهى رحمه الله . (الجامع)

بسم الله الرحمن الرحيم

و به نستعين . و نصلي على رسوله الكريم ، محمد الأمين . صاحب الكتاب الحكيم ، و القرآن المبين . و على أصحابه الغر اللهاميم ، و من تبعهم إلى يوم الدين .

أما بعد فهذا كتاب من مقدمة نظام القرآن ، افردناه لتمهيد أصول راسخة لتاويل القرآن إلى صحيح معناه . و هو علم مستقل عظيم المحل فى التفسير ، فانه يدلك على المعنى المراد من كتاب الله . و مع ذلك هو فن عام ، فان قواعد التاويل تجرى فى كل كلام ، و لكن النفع الأعظم منه فهم كتاب الله و معرفة محاسنه للاعتصام بما هدى الله النفوس به إلى غاية كمالها .

و لم نحتج إلى تاسيس هذا الفن لترك العلماء اياه بالكلية ، فانك تجد طرفا منه فى أصول الفقه ولكنه غير تمام . وليس للمتقدم أن يبلغ المنتهى و لا يترك للتاخر من مسعى ، و إنى سأذكر ما يبين لك ان شاء الله ، ما بقى من هذا الفن و ما ينبغى له من اتمام العناية و افراغ الجهد و كمال التيقظ و غاية التحفظ .

و إذ كان المقصود تكميل هذا الفن حتى يكون هو المعتمد فى فهم كتاب الله وكل كلام حكيم سميناه « التكميل فى أصول التاويل » و ما توفيقى إلا بالله عليه توكلت فانه نعم الوكيل .

(٢)

أصول التاويل أولى بأن يجعل فناً مستقلا و يوضع فى علم التفسير

قد جعل العلماء طرفا من أصول التاويل ، جزءاً لاصول الفقه أى فروع الشرائع . فلكونه جزءاً صار غير مستقل ، و لم يعط من الامعان و الاتمام ما يعطى لفن مستقل .

ثم لكونه مستعملا للفروع ، لم يعط من التيقظ و الاحتياط مايعطى لأصول الدين . ومعلوم أن الاختلاف فى فروع المسائل هين فهان أمره .

و كذلك لكونه مشتركا بين الكتاب والسنة لم يختص بما هو أهله ، والسنة معظم العناية فيها نقد الرواة ، فلا يتعمق فى متونها من قبل خواص الفاظها و تراكيبها ، فان الروايات أكثرها بالمعنى . و أما القرآن ، فيعض عليه بالنواجذ فيحافظ على حروفه وحركاته ويعتمد على ما يستنبط من نظمه و اشاراته ، و ينفى الاحتمالات الضعيفة عن تاويل آياته ، و يرد ما اشتبه منه إلى محكماته ، فلا يغتفر فيه الاخذ بالهوينى ، لا فى تاويله و لا فى تنزيله .

فلو جعل هذا الفن من علم التفسير لعظم محله فى الدين ، و لا فرغ له الجهد التام و الاحتياط من الآراء الضعيفة . و بعد ذلك كان استعماله فى الحديث و سائر الكلام على التطفل .

و بالجملة فادخال أصول التاويل فى أصول الفقـــه بمعنى علم المسائل الفرعية ، حط علم التاويل عن محله بثلاث مراتب :

الأولى انه كان حرياً بالبحث المستقل، فصار له شركاء فصار مغموراً فيها.

والثانية انه كان معظم علم التفسير لكونه أصولا لفهم القرآن ، و إذ جعل من علم الفروع لم يبالغ فى تنقيحه حتى يصير لعلم التاويل كالمعيار و الميزان ، مثل علم النحو و العروض . فما بلغ مبلغ الفن المنقح ، بل كان قصاراه أن يكون أصولا شخصية مثل قوانين الأمم المختلفة ، فيقال إن أبا حنيفة رح جرى على هذه الأصول ، والشافعى رح على تلك .

و الثالثة أن القرآن ليس مقصوراً على الفروع بل معظمه يتعلق بالعقائد و بواطن الاخلاق . و إذ جعل من أصول الفقه صار مقصوراً عليه ، و من هذه الجهة خاصة وقع خلل فاحش فى بناء العلم الذى يهدى إلى فهم القرآن . و لنتكلم عليه فى الفصل الآتى .

(٣)

بيان الخلل الفاحش الذى وقع فى طريق تعلم الدين من جعل علم التاويل مقصوراً على الفقه

لا يخفى أن الدين معظمه ترقية النفوس و تربية العقول و اصلاح الاعمال الظاهرة أى الاخلاق و العقائد و الشرائع . و القرآن قد تكفل كل ذلك باحسن ما يكون . و كل ذلك متصل بعضها ببعض ، و بجميعها تحصل التزكية و هى الغاية و المطلوب .

و لهذه الثلاث نشأت ثلاثة علوم : علم الاخلاق والمواعظ ، و علم الكلام ، و علم الفقه . و إذ جعل علم التاويل مقصوراً على الفقه ، بقى علم الاخلاق و الكلام فارغين عنه فلا تجده مستعملا فيهما .

أما علم الاخلاق ، فاتسع بلحله حتى تشبثوا بكل مارلقهم و اعجبهم . فمنهم من يبنيه على الحكمة العملية التى تلقوها من الفلاسفة . و منهم من يعتمد على تجاربه . ومنهم من يبنيه على الروايلت الضعيفة . وربما يأخذون من القرآن حسب تاويلاتهم الركيكة . و ذلك لظنهم بانه لاحاجة إلى صحة الاستدلال فى الترغيب و الترهيب و مدح الحسن و ذم القبيح .

و منهم طائفـــة من المتصوفة تكلموا فى العقائد يأولون القرآن إلى ظنونهم لجهلهم بالعربية وبحقيقة هذا الدين . و يزعمون أنهم أعرف بالقرآن و اسراره و تجد أمثلة ذلك فى كلام ابن العربى .

و أما علم الكلام فاصحابهم لاشتغالهم بالملاحدة قل اعتمادهم على النقل و كان معظم احتجاجهم بما يجنح إليه العقول لكى يسلمه الخصم و ربما يأولون القرآن إلى غير مراده فراراً عن اعتراضات المعاند ، إذ لم يهتدوا لصحيح التاويل وتطبيق المعقول بالمنقول ، فجعلوا للتاويل — لانقول أبواباً بل ثلماً — يخرجون منها حين لم يمكنهم الدفاع على وجه مستقيم ، حتى قال بعضهم كالرازى عفا الله عنه انه لااعتماد على ظاهر القرآن لعله يكون من المتشابهات . فجعل القرآن كله ملتبساً ، ولم يكن ذلك إلا لعدم تاسيس أصول التاويل العامة التى يعتمد عليها فى كل ما يستنبط من القرآن ، سواء كان من فروع الشرائع أو الاخلاق و العقائد .

فان جعلت القرآن أصلا لتمام علم الدين كما هو فى الحقيقة ، صار من الواجب أن يوسس أصول للتاويل ، بحيث تكون علماً عاماً لكل ما يوخذ من القرآن .

(٤)

غاية هذا العلم هو المنع عن التفسير بالرأى

قد حذر العلماء قديماً عن التفسير بالرأى ، و لكنهم لم يبينوا كل البيان ما هو المراد من التفسير بالرأى ؟ و إذ كان المروى فى ذلك عن النبى ﷺ قليلا جداً ولم يكثر فيه أيضاً ما روى عن الصحابة ، فاضافوا به ما روى عن التابعين أو تبعهم مع اختلاف الاقاويل بينهم . و على هذا صنف ابن جرير رحمه الله تفسيره وهو أحسن التفاسير حتى قيل أنه لم يصنف مثله .

والقرآن قد تضمن من الحكمة والمعارف ما لايحيط به إلا الله تعالى، و قد حث القرآن نفسه على التفكر و التدبر فيه و قد تبين لأصحاب العقول معارف غامضة قد تضمنها الآيات و لم يجدوها فيما روى عن السلف فذكروها فى تفاسيرهم ، و اكبر التفاسير المتداولة التى كتبت على هذا الطريق ما ألفه الامام الرازى رحمه الله .

و كلاهما متلقى بالقبول بين المسلمين عامة ، مع اتفاق العلماء على أن كليهما يحتوى على الغث والسمين ، و لابد للناظر فيهما من النقد والامعان فنوجهك إلى هذين التفسيرين لتقيس عليهما غيرهما ، فانهما مثالان لسائر التفاسير ثم نبين لك ما هو التفسير بالرأى الذى ذمه العلماء ؟ و ما هو الطريق المثلى التى تعصمك منه ؟

فاعلم أن الصحابة و التابعين رضى الله عنهم أجمعين قد اختلفوا كثيراً فى التاويل مع تقارب خطاهم ، فلواخذوا تاويلاتهم عن النبى ﷺ لما اختلفوا ؟ و لكنهم أخذوها عن علمهم باللسان ، و اقتصارهم على علمهم

بنظائر الآيات ، و علمهم بالسنة و عن بصيرة يعطيها الله عباده ولذلك ترى أنهم يتقاربون فى المآل . و بالجملة فانهم لم يأولوا القرآن بالرأى المذموم الذى لا مستند له فى الكتاب و السنة و لسان العرب . . . . . .

من افاداته رحمه الله :

فى بيان محل التفسير

لا تذكر إلا التفاسير المشهورة المعتمدة .

فاعلم أن لكل تفسير من المشاهير نهجاً و غرضاً . فلا يطلب منه ما ليس منه . و لابد للناظر فيه من معرفة ذلك النهج و الغرض .

فاعلم أن تفسير ابن جرير رحمه الله هو الجامع لكل ما جاء من طريق النقل من غير نقد فى الرواية . و لكنه بعد نقل الوجوه المنقولة يبين ما هو الصواب عنده . و إذا أمكنه يجعل المفهوم جامعاً للوجوه . و يبحث عن اللغة و الاعراب و كثيراً ما يستند بكلام العرب و من أجل محاسن هذا التفسير كونه جامعاً لروايات السلف مع التعرض باللغة و النحو و ترجيح الأولى بالصواب عنده . و لهذه الوجوه اقبلت العلماء عليه . و أما النظر فى الروايات من جهة القرآن و المعقول و التاريخ ، فليس من شانه حتى إنه جمع من المناكير الكبر من غير تنبيه على نكارتها . و إنما ترك ذلك لأهل النظر فانه لو أراده لعله لم يتيسر له اتمام هذا الجامع الكبير .

و أما تفسير ابن كثير فهو خلاصة تفسير ابن جرير مع نقد الروايات على أصول المحدثين و نقد التاويل . و أما النظر من جهات أخر ما قدمنا فلا يطلب فى تفاسير المحدثين .

و أما تفسير الرازى فهو جامع لاقوال المتكلمين فهو كابن جرير فى جمع الاقوال و ربما يرجح الصواب وينتصر لمذهب الاشاعرة وأجل محاسنه كونه جامعاً ، فيجد فيه الناظر المتامل محلا للاختيار و اعمال النظر و مع ذلك لا ينظر بالامعان و التامل ، و لو فعل لعله لم يتيسر له هذا الاكثار فى القول . فان ذلك ليس من شانه ولذلك جمع من المناكير الكبر فهو كابن جرير فى خلط الغث بالسمين

و أما الزمخشرى فينظر فى نفس عبارة القرآن و لا يبعد عنها و يبحث عن اللغة و الاعراب و ربط الكلام و ينتصر لمذهب المعتزلة من غير تطويل الكلام و يورد قليلا من الروايات و جل محاسنه أنه وجيز و قليل السقطات فى اللغة و الاعراب فهو انفع للطلاب . . . . . .

(٥)

(التفسير بالرأى)

إن السلف اختلفوا فى تاويل القرآن كثيراً ، لكونه جامعاً لوجوه كثيرة ، ولكونهم متفاوتين فى مدارج العقول و هذا كما اختلفوا فى الفتاوى و لكنهم مع ذلك اعتمدوا على أصول راسخة للتاويل كما سيأتيك فى هذا الكتاب فلم يعتمدوا على الرأى المحض و هوى النفس .

و من قال إن التفسير الذى لم يكن منقولاً عن السلف فهو التفسير بالرأى ، فمحمول على أن من ترك المنقول أو شك أن يقع فى أوهامه فيرى الباطل معقولاً كما قالوا فى من لم يتقلد السلف فى الفتاوى و ركب راسه فلا يومن ابعاده عن جادة الشريعة كل الابعاد . و كذلك محمول على اخذ ما يحتاج إليه فى علم أسباب النزول و مواقعه . فلابد أن يوخذ من النقل مع التنقيد و الاختيار بما صح و ثبت . و لا يحمل ذلك على ترك النظر فى دلالة القرآن و حمل الآية على نظائرها ، و الجمود على المنقول المحض ، و عدم الفرق بين صحيحه و سقيمه ، و تسويته فى الاعتماد . فان المنقول جله الاحاديث الضعاف و المتناقض بعضها بعضاً ، بل المتناقض لظاهر القرآن . فهل يعتمد عليها ؟ أو يترك القرآن لا يتدبر فيه و لا يفهم معانيه ؟ نعم ، ينظر فى ما نقل من السلف للتائيد عند الموافقة و رجع النظر عند المخالفة حتى يطمئن القلب بما يفهم من الكلام فانه اوثق و أبعد عن الخطأ و لذلك قال علماء التفسير إن أحسن التفسير ما كان بالقرآن .

. . . . . .

(٦)

(فرض التدبر والتفكر فى كتاب الله)

لما رأى أهل السنة أن أهل البدعة و الباطل جعلوا يأولون القرآن بالهوى و يحملون النصوص على غير مرادها ، تحرجوا الاشتغال بالاقاويل فى التفسير إلا ما روى عن الصحابة و التابعين . و لا شك أنهم لم يريدوا بذلك الا سداً لأبواب الفتنة . و كان ذلك هو الطريق . فان التاويل إذا لم يوسس على قواعده التى تكون فارقة بين الحق و الباطل ، لم يمنع عن القول بالرأى المحض .

و اما الصحابة والتابعون فاولوا القرآن بالعلم و النظر الصحيح ، فان تصفحنا الاصول التى جروا عليها ، كانت لنا أسوة حسنة فى تدبر كتاب الله . و قد جمع أهل التاويل نبذا من اقوالهم ، ولكنهم لم يجمعوا أصول تدبرهم و الحاجة إلى ذلك شديدة . فان الله تعالى أوجب التفكر فى كتابه بصريح القول فى غير ما آية . و قد حث النبى ﷺ على ذلك ، و علمهم النظر و الاستنباط و كان ذلك مما فرض الله عليه .

و إذ غلب على أكثر الناس أن القول بما لم يرو عن السلف هو القول بالرأى ، فصار ذلك مانعاً عن التفكر و التدبر ، احتجنا إلى بيان الفرق بين القول بالرأى المنهى عنه و بين طريق السلف الذين تفكروا و تدبروا فى القرآن . وإلى بيان الحاجة الشديدة إلى استعمال الفكر والتدبر فى كتاب الله .

من العجائب بل من المصائب أن يشتبه الحق بالباطل عند أهل الحق

فيتعصبون للباطل و يعثرون فى وضح النهار بعد ما جاءتهم البينـات . فمن ذلك حرموا الفكر و النظر فى آيات الله المشهودة والمتلوة ، وجعلوا السنة بدعة والبدعة سنة . و ذلك بعد أن علموا أن القرآن قد حث على الفكر و التدبر فى كليهما و أن الصحـابة رضى الله عنهم كانوا يتدبرون القرآن و يقولون بما فهموا منه و ينقلون ذلك عنهم . . . . . .

(٧)

دلائل وجوب التدبر فى كتاب الله

تذكرة

(١) إن الله تعالى قد أمر به فى غير ما آية أمراً صريحاً .

(٢) بين مواضع التدبر والاستدلال والنظر ولم يبين ما يكشف بعد التدبر.

(٣) بعث النبى عليه الصلوة و السلام معلما للحكمة كما بعثه معلما للشرائع و قد علمها و حث عليها و هدى إلى طرقهـا . فلنذكر ذلك بشئ من التفصيل :

(الف) : فمنها أنه كان يلقى المسئلة اليهم لكى يستنبطوا (١)

(ب) : و منهـا أنه عليه السلام نهى عن السوال لكى يستعملوا النظر و الفكر مع مصالح أخر (٢)

---

(١) روى البخارى فى صحيحه عن ابن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم قال ان من الشجرة شجرة لا يسقط ورقها وانها مثل المسلم حدثونى ما هى ؟ فوقع الناس فى شجر البوادى . قال عبدالله فوقع فى نفسى انها النخلة . ثم قالوا حدثنا يا رسول الله ما هى ؟ قال هى النخلة . (منه رحمه‌الله‌تعالى)

(٢) أيضاً عن ثابت بن أنس رضى الله عنه قال : نهينا فى القرآن ان نسأل النبى صلى الله عليه فكان يعجبنا أن يجئ الرجل من أهل البادية العاقل ، فيسأله و نحن نسمعه إلى آخر الحديث . لعله أراد بالنهى قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء الآية) و لعله أراد بقوله «العاقل» أن يسأل عن أمر مهم نافع . (منه رحمه الله تعالى)

(ج) : كانت الصحابة يتسائلون منهم عن معانى القرآن و يعملون فيها الفكر كما سأل عمر بن الخطاب رضى الله عنه ما كان من الاشارة فى سورة النصر . فلم يجدها فى من حضره من كبار الناس غير عبد الله بن عباس رضه و صوب عمر رضه قوله . و فى رواية أنه كان علمه ذلك و هذا لما رأى استعداده و شوقه لفهم القرآن و التفقه فى الدين فكان عنايته به أكثر . . . . . .

(٨)

كان عقلاء الصحابة و فقهاؤهم أعلم بالقرآن

(١) قد يتوهم أن الاشتغال بالعلوم المحدثة من علم البيان و النظر و الاستدلال بدعة ، فان أعلم الناس بالدين لم يشتغلوا بذلك . و كذلك قد يتوهم أن التاويل على أصول علم البيان و النظر و الاستدلال هو القول بالرأى . و أن الصحابة لم يعلموا هذه التاويلات . فمن ادعى العلم بما لم يعلمه الصحابة فقد أحدث باطلا ، ولاينبغى الالتفات إلى ما يكشف هذا المدعى، و يمنعون بذلك التامل فى كتاب الله و النظر فيه ، و يقنعون بما نقلوه من السلف . فنقول ان هذا من الأمور التى تقتضى الكشف و التبيان لما التبس فيها الحق بالباطل .

(٢) لا شك أن فقهاء الصحابة بل عامتهم كانوا أبصر وأعلم بالقرآن لوجوه كثيرة . و لم يكن لهم احتياج إلى أصول علم البيان وفروعه ، ولا علم النظر و الاستدلال . فان ذوقهم و سلامة عقولهم قد اغناهم عن ذلك فان كثيراً من العلوم المدونة ليست إلا كالدواء للمرضى . ألا ترى أن علم

العروض و البيان إنما حدث بعد وجود كثير من الشعراء المجيدين و البلغاء المفلقين . بل ذلك إنما أخذ من كلامهم كما استخرج علم النحو من كلام اهل اللسان الذين لم يقرءوا و لم يكتبوا .

و هكذا علم النظر إنما أسسه ارسطو و كان الناس قبله و بعده يستعملون النظر و الاستدلال مع عدم التعلم و التمرن باصول المنطق . بل المنطق قطرة من علم النظر الذى أودعه الله فطرة الانسان . فمن أحدث و استخرج مثل هذه العلوم ربما قصر و فرط و زاغ ، و لذلك كثرت الاختلافات فيها ، و صار المشتغل بها أبعد عن سلامة الفطرة . ألا ترى ذلك فى كثير من المشتغلين بعلم العروض و المنطق . و هكذا قولنا فى علم اصول الفقه ، الا ترى افقه الأمة و اعمقهم نظراً فيه إنما كانوا قبل تدوين هذا العلم . الاتراك تطرب من شعر او تهتز من خطبة ، ثم إذا حاولت ان تبين وجوه المحاسن صعب عليك . ثم ترى من سمع بيانك ربما لاتحس بشئ من الاهتزاز ، بل كل ما ازداد التفسير قل التاثير . و لذلك ترى المتوغلين فى هذه العلوم العقلية و النظرية ابعد من تحقيقها ممن اعطى فطرة سليمة و طبيعة مستقيمة .

(٣) لا شك أن كثيراً من الصحابة إذا فسروا القرآن كانوا كالبحر الزاخر و السحاب الهاطل ، يلقون على أصحابهم ما كان يملأ صدورهم علماً و حكمة و لكن مع ذلك بل لذلك لم يستطع السامعون أن ينقلوه للخلف الاتراك تجلس فى مجالس الوعظ و الخطب و ترى صدرك قد امتلأ و عقلك قد وعى معارف ، و لكن لا تستطيع ألقاءها على غيرك ، بل تراك تضمحل هذه المعارف و تنمحى عن قلبك ، و لكنك تجد أثرها قد بقى ،

فهكذا كان خطب النبي ﷺ وخطب البلغاء، لم يحفظوها ولم يرووها إلا نبذا منها مع بقاء آثارها فى القلوب و ما رووا إنما هى قطرة من عباب ****

****

من افاداته رحمه الله :

الفرق بين العلم الفطرى و العلم الرسمى

(١) العلم الذى حصل على طريق الفطرة لا يحس به صاحبه ، فانه ليس عنده فى صورة القضايا الكلية و لا يظهر عمله إلا عند وقوع الضرورة ، و يكون الحكم به حكما جزئياً . و أما صاحب العلمى الرسمى فعنده أصول وكليات منضبطة و يحكم بها من غير وقوع المسئلة . و الكليات المنضبطة ربما تكون قاصرة و ربما تكون زائغة ، فالحكم بها كثير الغلط و لذلك كثر الاختلاف فى أهلها و لذلك كانت العلماء السلف يكرهون السوال و الحكم قبل حلول الواقعة .

(٢) أصحاب العلم الرسمى بعد التمرن الطويل ربما يحصل لهم الذوق الفطرى و ان كان ادون من الذوق الفطرى الذى حصل لذوى العقول السليمة فهم يقربون من أهل العلم الفطرى ويسمون ذلك ملكة و عند ذلك تضمحل العلوم الرسمية و أصولها و فروعها . . . . .

(٩)

غاية الكتاب

(١) غاية هذا الكتاب هى معرفة الأصول التى تعين على فهم القرآن الحكيم حسب افهام البشر . و هذه الأصول تنقسم على قسمين : الأول ما يعصم عن الزيغ فى التاويل . و الثانى ما يهدى إلى الحكم التى يتضمنها كتاب الله . و الأمر الجامع لهذين هو التفكر فى نظم القرآن . فالنظم هو الحبل المتين الذى يعصم من يعتصم به عن الزيغ و هو السراج المنير الذى يدل على الحكم فان الآيات إنما تنتظم بما تتضمن من الحكمة فانها هى الجامعة .

(٢) ليست الغاية من هذا الكتاب محض بيان الاصول التى اتخذتها للتاويل ، بل الغرض أن تدل على ما يهتدى به أهل العلم فى التفكر فيبلغون من المعانى و الحكم ما لم نذكرها .

(٣) فاعلم أن التفكر فى كتاب الله المنزل ، يشبه الفكر فى كتاب الفطرة و ذلك تتبع الأمور حسب تتابعها فى النسب التى بينها . و النسب لا تحصى ولكنها محدودة فى أقسامها المذكورة فى غير هذا الموضع . و إنما نذكر بعض الامثلة ههنا :

المثال الأول : (الدنيا سجن المومن وجنة الكافر) فههنا وجوه للسجن ووجوه للجنة و بحسبها التقابل بينهما . فللشئ وجوه وبين الشيئين مناسبات .

الدنيا تشبه السجن من وجوه :

الأول : السجن ليس بمظنة اللذات فالمومن قليل الامل ، آيس من

نعيم الدنيا فهو مطمئن غير مبال بالشهوات .

الثانى : من كان فى السجن كان متبرما به ، راجياً ، منتظراً ، مشتاقا ليوم خروجه ومقر حريته ، فهكذا المومن فى الدنيا .

الثالث : المسجون يكابد الشدائد ، فمن علم أن الايمان حظه فى هذا السجن هان عليه شدائده . . . . . .

. . . . . .

الغاية لأصول التاويل اثنتان : (من افاداته رحمه الله)

الأولى : لكى يطمئن القلب به . و الثانية : ليسد أبواب الاحتمالات الباطلة المتناقضة . و الغايتان واحدة . ثم هى كثيرة الفوائد . فنذكر بعضها ههنا .

(١) فى الكلام حذف و ادخال (لدفع دخل مقدر ، أو لتمهيد ، أو لبيان ، أو لا يراد ما يناسب بالمحل من الأصول و الفروع) و تبديل المحل بتقديم و تاخير و تبديل الأمر لامر . فللمفسر أن يرد الكلام إلى أصله الاول و يبين حكمة صرفه عن الأصل ، فهذه وجوه الصرف بعد الابتداء .

(٢) بين الكلام و بين الحالات والوقائع مناسبات . وهذه يبين : ايراد أمر دون امر . ومقدار الكلام من الايجاز والتفصيل . وأسلوب الكلام من اللين و الشدة وغيرهما من عواطف النفس ، مما تقتضيها النسبة بين المتكلم و المخاطب و أحواله . فللمفسر أن يعلمها من الأصول الراسخة و لا يعول على الروايات الضعيفة و يذكرها بقدر الحاجة مما يثبت .

(٣) للكلام أصول يثبتها . و فروع يشير إليها . فللمفسر أن يتدبر

فيه و يبين الاصول و يستنبط الفروع و هذا بحر لا ينقضى عجائبه . فيقول حسب الفرصة و احتمال الموقع و يتجنب التكرار مهما أمكنه .

(٤) للمفسرين أقوال ضعيفة لا يحتملها الكلام . فلابد من بيان ضعفها وهذا متعب ومضيع للوقت فان أبواب الجهل والكذب لاتحصى .

و كذلك ربما يكون التاويل الصحيح الواضح ، خفياً ، بعيداً عن الناس إما لتمكن خطأ فيهم أو لعدم علمهم ببعض ما يتوقف عليه التاويل و هذا أيضاً كثير . و ما كان له أن يكثر و لكنه كثر لاسباب لاتذكرها ههنا، فيضطر المفسر إلى دفع هذه الأمور و هو كاره ،فانه يشمئز عن ذكر الحماقات و لكنه ان تركها لميحسم جراثيم الباطل و الله الموفق للسداد .

(٥) الحاجة الشديدة إلى تاسيس اصول التاويل و تشئيد مبانيه . إن كل فرقة من المسلمين يتمسك بالقرآن و يأول آياته إلى رأيه حتى اضطر المومنون إلى التمسك بالسنة ظناً منهم بان القرآن ذو وجوه و السنة بنية والظاهر أن القرآن هو المعتصم و المتمسك المعتمد . والمبطلون انما حرفوه . فلو أوضحت أصول التاويل لم يمكنهم التحريف . واليأس من القرآن والتمسك بالاحاديث و هن وفتح لابواب الأكاذيب و لا يتم الحجة عليهم . فليعتصم بالقرآن و بنظمه و يشيده بالسنة و الخبر الصحيح و العقل الصريح .

من افاداته رحمه الله :

بعض الأصول للتاويل

(١) القرآن لكونه كلام الله لا يخالف بعضه بعضاً ، فليأول إلى ما لا يخالفه .
(٢) صرح القرآن برد المتشابه إلى المحكم . فما علم منه يقيناً يجعل أصلا محكما .
(٣) ناخذ أصولها (و هذا أصل الأصول) من العقل و القرآن .
(٤) لا نعتمد على دليل ضعيف فى صرف القرآن عن ظاهره و نجعل الظاهر حجة .
(٥) عند الاحتمالات ناخذ باحسنها و أوفقها بالنظام و العمود .

(١٠)
تعريف التاويل و حكمه

(١) ما هو التاويل ؟ قال الله تعالى (ورفع أبويه على العرش و خروا له سجداً و قال يا ابت هذا تاويل رويای من قبل و قد جعلها ربی حقاً) فعلمنا ثلاثة أمور :

(الف) : إن التاويل ما يكون حقيقة لامر ، أخبر عنه بمتشابه له على طريق التمثيل .

(ب) : وان الأمر إذا كان تاويله حقاً فهو أيضاً حق . فان يوسف عليه السلام رأى الشمس والقمر واحد عشر كوكباً انهم سجدوا له فصارت هذه الرويا حقاً بوقوع ما أخبر عنه .

(ج) : و ان الله تعالى يستعمل هذا الطريق لكشف بعض الأمور تبشيراً أو لحكمة أخرى كما شاء .

(٢) و قال الله تعالى (فلما بلغ معه السعی قال يا بنی انی ارى فی المنام انی اذبحك فانظر ماذا ترى ؟ قال يا ابت افعل ماتومر ستجدنی ان شاء الله من الصابرين . فلما اسلما و تله للجبين و ناديناه ان يا ابراهيم قد صدقت الرويا انا كذلك نجزی المحسنين) فعلمنا من ههنا :

(١) ان ابراهيم عليه السلام فهم من رؤياه أنه مامور بذبح ولده .

(٢) و ان ابراهيم عليه السلام لم يصبر للتاويل بل صدق الرويا التی

قال فى آية (إذا جاء نصر الله و الفتح) : المراد من الفتح ، فتح مكة ، فتح طائف ، فتح خيبر ، فتح عام ، فتح العلوم ، فتح المعقولات .

. . . . . .

و ما علمت دواء لهذا الداء العضال الا التمسك بالقرآن ورد الروايات و الآراء إلى كتاب الله . و هذا لا يكون إلا أن نومن بان « **القرآن لايحتمل إلا تاويلا واحداً** » . و قد قدمت القول فى أن القرآن **قطعى الدلالة** و ليس لعبارته إلا مدلول واحد . فها انا اذكر أصولا بها يتضح سبيل التاويل الواحد .

(١) أكثر الطبائع طلعة . فاذا سمعت أمراً مجملا لم تقنع به إلا أن يفصل لها . مثلا إذا سمعت أن الساعة آتية ، فسألت أى يوم و فى كم مدة؟ و منهم الذين يلتمسون حقائق الآخرة و يبحثون فى ذات الله و هم لايعرفون أنفسهم ، فلو تدبروا القرآن سكتوا كثيراً و اخبتوا كما قال تعالى : (تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله) « سورة الزمر آية : ٢٣ » و كما قال تعالى : (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعا من خشية الله) « سورة الحشر آية : ٢١ و هكذا كان السلف الصالح .

(٢) وكذلك أكثر الأفهام قعدة طلعة . فلا تسرى و لا تستقيم فى امور عامة رفيعة الا أن يجسم و يشخص لها . فلا تطمئن بعلم أو حكم إلا تعرفها ممثلا بالاسم و الشكل و المكان . مثلا قولهم : (ماذا أراد الله بهذا مثلا؟) أو قولهم : (ما هى ؟) و (ما لونها ؟) . فلاطمئنان

ما اشد ضلالة من اتبع عدوه ؟ و قد كادت اليهود هذا الكيد بالمسلمين حسب عادتهم ولكن حفظنا الله وبسط هذا الكلام يخرجنا عن موضوعنا فلنرجع إلى ما كنا فيه * * * * * * * (بياض فى الاصل)

(١٢)

من أسباب الخطأ فى التاويل

(١) من المسلمات أن الحق لا يناقض بعضه بعضاً ، فعلى هذا كل من اتخذ عقيدة و ثبتت عنده من أى دليل كان ، و وجد ظاهر القرآن لا يوافقها ، التزم تاويل القرآن إلى ما اعتقده . و من هذا الباب دخل كثير من التاويلات التى لا تصح .

ثم انهم ربما التزموا تاويلا ، يمكن تصحيح العقيدة التى لاجلها اوّلوا بغير ذلك التاويل . فالاصل الراسخ استعمال أصول مختصة للتاويل . و إن وجدت عقيدة لا توافق القرآن :

فاما ان تصلح تلك العقيدة حتى تصير موافقة بالكتاب .

أو تنظر مرة أخرى فى القرآن لعل الله تعالى يهدى إلى التوفيق .

أو يتوقف .

و اما صرف القرآن عن معناه على غير أصول التاويل فهو التعرض للتحريف . . . . . (بياض فى الاصل)

(١٣)

التاويل إلى معنى واحد

كان للقرآن عند الصحابة تاويل واحد لتقوٰيهم و علمهم باللسان و بشان النزول . و لذلك قل منهم السوال و التفسير .

أما التابعون للصحابة فخفى عنهم بعض شئون النزول ، فاولوا القرآن إلى آياته و آثار الصحابة فكانهم اعتصموا باصلين :

الأول أن القرآن لا يخالف بعضه بعضاً . و الثانى أن أفعال النبى و أقواله و عمل الصحابة أقرب شئ موافقة بالقرآن . فوقع بعض الاختلاف فى وجوه لمعنى واحد ، و هذا لا يبعد عن الصواب . و لكن فى ذلك العصر كثرت الروايات الضعيفة واعتمدوا عليها فى التفسير فصارت كتب التفسير حاملة لروايات من اليهود و الدجالين الواضعين .

ثم ظهرت الفلسفة واختلفت الآراء فى العقائد ، فصنفوا الكتب على نمط الكلام و ارخوا عنان الخيال ، و تشبثت كل فرقة من الروايات و الفلسفة ما أعجبها ، فكثرت وجوه التاويل حتى صار الأمر الواضح مشتبها ، و اظلمت سبل التفسير و أغلق باب القرآن . و لكثرة الآراء و تشاجر الروايات ضاع الحكم الفيصل . وتفسير الرازى رح أصدق شاهد على ما نقول فانه جعل القرآن كتاباً مشتبهاً ، ملتبسا لارجاء فى فهمه ، لما جاء بوجوه كثيرة حيث لا يحتمل الكلام الا سمتا واحداً . فلا تراه الا يغادرك بين سبل متفرقة لا تدرى أيها تسلك ؟ ثم قال أن القرآن كله مظنون الدلالة (انظر المقدمة على المحكم والمتشابه) و هنا نورد أمثلة لاكثاره بالوجوه :

رأها . و لم يعمل رأيا ليأولها إلى ما يكون أقرب إلى العقل و ذلك لانه قد نذر أن يجعل هذا لخدمة الرب و يقربه إليه . فلما رأى أنه يذبحه ظن أن الله تعالى تقبل قربانه و أراد تحقيقـــه . فخاف التاويل و أخذ بظاهر التاويل فهو قدوة فى الاخذ بالظاهر إذا كان أقرب إلى كمال التعبد . فكما هو عليه السلام قدوة أهل الظاهر فكذلك هو قدوة لاهل التدبر و النظر و الاستدلال . و العبد المخلص الطاعة يعصمه ربه من الزيغ سواء كان من أهل الظاهر أو أهل النظر و هم العلماء فان رأس العلم الخشـــية للرب تعالى . . . . .

(٣) استحسن مـــنه هذا الفهم و كان ذلك ابتلاءاً كما قال تعالى : (ان هذا لهو البلاء المبين) . . . . . (بياض فى الأصل)

(١١)

الفرق بين التاويل و التحريف و التفصيل

التـاويل حمل الكلام على ما يحتمله نقلا أو عقلا .

و التحريف حمله على ما لا يحتمل .

و التفصيل ذكر أجزاء لم تذكر لجامع يحتملـــها . و الفرق بين هذه الثلاثة من أشد الأمور وجوبا لفهم القرآن و التمسك به .

و الضرر من تخليط التاويل بالتفصيـــل أهون من ضرر تخليط التحريف بهما . فانه باطل محض و افتراء على الله وهدم لدينه و اقامة لدين آخر. ألاترى كيف ضلت النصارى واليهود بتحريف الكلم عن مواضعه ؟ و كيف لعن الله اليهود خصوصاً ؟ لأن الذى بدل النصرانيـة كان يهودياً عدواً للنصارى . و ما اشد غضب الله على من تعمد اضلال عباده ؟ و

هذه الطبائع جلعت فى كتب التفسير تفاصيل القصص . و انفتح باب الادخال فى القرآن ما ليس منه ، ثم نشأ الاختلاف . (وهذان الامران فى الاخبار) .

(٣) ثم حاجة سياسية دعت إلى تاويلات ركيكة وفتحت بابا للجدال ، وذلك لان الملك فى الاسلام نشأ فى حجر النبوة والخلافة الراشدة ، فكانوا يقضون بكتاب الله و سنة رسوله و لا يحيدون عنهما ، فاسست قواعد السياسة على حكم الله . فلما صارت الخلافة إلى الذين هم أشبه بالملوك ، لزمهم اتباع أحكام الشريعة ، فالتجأوا إلى العلماء لتدوين جزئيات الأحكام ، و العلماء كذلك لم يسع لهم أن يقترحوا من عند أنفسهم حكما ، خوفا من الله الذى اعلن باكمال الدين . ثم أراهم النبى ﷺ وخلفاؤه رض كيف تشبثوا فى كل امر بالشريعة ؟ فالتجأوا إلى اعمال الراى والقياس فى القرآن و فى ماروى عن النبى ﷺ . و كان ذلك عليهم حملا بعضاً لاختلاف الروايات .

فمنهم من اطمأنوا بالاحاديث بعد النقد كاكثر أصحاب الروايات لما علموا أن كلام النبى لابد أن يوافق بالقرآن و هكذا كلام الصحابة بكلام النبى ﷺ . ووجدوا فى الاحاديث فسحة ، فجعلوها أصلا لقلة الخطر فيها و فسروا القرآن بها ، حتى ان اصبح زمام القرآن بيد الحديث ، فقل اعتناءهم بفهم معانى القرآن و اولوه إلى ما يخالف آياته . و كان عليهم ان يأولوا الاحاديث إلى القرآن . فانى رايت كم من روايات متضادة حسب الظاهر ، توافقت حين اولناه إلى القرآن . فان القرآن كالمركز وإليه ترجع الاحاديث من جهات مختلفة كما تجد تفصيله فى كتابنا «احكام الأصول باحكام الرسول» (١)

(١) هذا كتاب غير مطبوع لاستاذنا الامام الفراهى رحمه الله تعالى (الجامع) .

ومنهم من احتاطوا لوهن أسباب الجرح والتعديل ورأوا التشبث بالقرآن أرجح من أخذ الروايات اقتداء بالمجتهدين من الصحابة كعمر رض وعائشة رض و ابن مسعود رض . فبذلوا جهدهم فى استنباط المسائل منه ، فما ظهرلهم من الجزئيات ارجح و اوفق بالعدل و القسط ، التمسوه فى القرآن ، فخيل إليهم من اشارات الكلام أن القرآن ينطبق به و إن كان هو ساكتاً . فهذا ما كان من ضرورة الفتاوى و تاسيس القوانين .

(٤) ومثل ذلك ما استنبطوا من أحكام العبادات . ولكنهم رحمهم الله لم يشددوا على ما استنبطوه ، و سامحوا بمن يخالفهم . و لكن من هذا الاستنباط وهذه المسامحة نشأت ظلمة متكاثفة . فصار القرآن عندهم محتملا لمعان مختلفة لا يقطع بواحد منها .

(٥) و مثل هذه الحاجة الشرعية بحثهم و جدالهم فى الكلاميات . وهذا شر فتنة وقعت فيها الأمة ، فتشبث كل فرقة بآيات ، و أولوا القرآن إلى آراء مختلفة حتى إلى الكفر و الزندقة . فالمحيص عن هذه الورطة أن تجعل ما فى القرآن مرتفعاً مما الحقوا به من الروايات و الآيات و تجعله قطعياً و ما دونه ظنياً ، متحملا للاختلاف ، و لا تمار فيه إلا مراء ظاهراً .

. . . . . .

(١٤)

فى المتشابه و تاويله

قد أخبرنا القرآن بنصه أنه تعالى أحكم كتابه و فصّل آياته و بيّنها و سماه قرآنا مبيناً و قولا فصلا . و مع ذلك أخبرنا أن فيه آيات متشابهات لا يعلم تاويلها الا الله ، أو الراسخون أيضاً على اختلاف القولين ، وان كان الصحيح عندى هو الأول كما سترى . و لكن نطرده قبل الكشف ، فلا أقل من أن المتشابه لا سبيل إلى تاويله عموما . و لما اختلف الناس فى تفسير القرآن ورد بعضهم قول بعض ، غلب على ظنهم أن القرآن ليس قطعياً فى دلالته ، و ان ليس للكلام حكم يقينى لبنائه على النقل . (أنظر تفسير الرازى تحت آية ٦ من سورة آل عمران)

ثم كان دأبهم أن جعلوا الآيات الظاهرة متشابهات اذا ظنوها على خلاف ما برهنوا عليه ، فكانت الآية الواحدة محكمة عند فرقة ، ومتشابهة عند أخرى . قال الامام الرازى رحمه الله : « اعلم ان هذا موضع عظيم فنقول ان كل واحد من أصحاب المذاهب يدعى ان الآيات الموافقة لمذهبه محكمة ، و ان الآيات الموافقة لقول خصمه متشابهة . فالمعتزلى يقول قوله تعالى : (فمن شاء فليومن و من شاء فليكفر) محكم . و قوله تعالى : (وما تشاون إلا أن يشاء الله رب العالمين) متشابه . و السنى يقلب الأمر فى ذلك . فلابد من قانون يرجع إليه » . ثم ذكر ظنية الدلائل اللسانية فقال : « فلهذا التحقيق المتين مذهبنا ان بعد اقامة الدلائل القطعية على أن حمل اللفظ على الظاهر محال ، لا يجوز الخوض فى تعيين التاويل . فهذا منتهى

ما حصلناه فى هذا الباب و الله ولى الهداية و الرشاد » .

ما اصدق قوله « بأن هذا موضع عظيم » و قوله « بأن الخوض فى تعيين التاويل لا يجوز » قول مرضى . و لكن بقى باب الفتنة مفتوحا إذا لم يتبين المحكم من المتشابه . و بئس الأمر إذا كان محكم فرقة هو نفسه متشابهة فرقة أخرى حتى أن آية (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها) عدت من المتشابهات عند السنى . قال الامام الرازى رحمه الله : «فاذا كانت المسئلة قطعية يقينية كان القول فيها بالدلائل الظنية الضعيفة غير جائز. مثاله قول الله تعالى : (لايكلف الله نفساً إلا وسعها) » ثم اقام الدليل القاطع على أن مثل هذا التكليف قد وجد على ما بينا بالبراهين الخمسة فى تفسير هذه الآية ، فعلمنا أن مراد الله تعالى ليس ما يدل عليه ظاهر هذه الآية .

فمع هذا لو كان لنا سبيل إلى ذلك البرهان القاطع المزعوم لأخلدنا إليه ، و كان هو الحكم الفاصل بيننا ، و لكن الذى جعله قطعياً و برهاناً لاشد مظنة للخصام . فما بالهم جعلوا القرآن غير قطعى ، فقطعوا عنه الرجاء و اكبوا على برهان لا يزداد شاربه الاظماً ؟ فبقينا فى التشاجر و الاختلاف . فبعد ما خاب الامل من هذا القطعى ، حان لنا أن نرجع إلى ما اسأنا به الظن أولا ، فنحسن به الظن ، فنومن بأن القرآن هو القطعى فى دلالته و الفاصل فى حكمه . و أما حديث المتشابهات فالكشف عنه أول واجب علينا ، فان الغلط فى تفسيره ذهب بنا عن المهيع . فنقول و لا هادى إلا هو ، عليه توكلت و إليه أنيب .

وإذ انا من حزب العقل و البرهان نتحاشى من أن يعلق بظن ظان انى مستخف بشان البرهان مما سبق منى « ان لا يزداد شاربه الاظماً » .

فقبل البحث عن اصل المسئلة نقدم جملة من كتابنا «العقل وما فوق العقل» بقدر ما يزيل العماء عن رفيع منزلة العقل و اتصاله بما هو فوق العقل.

. . . . . .

اقتباس من كتاب العقل وما فوق العقل(١)

(١) العقل فى ما وراء العقل ساكت الحكم و لكنه دليل إليه .

(٢) العقل له علمان : علم ماخوذ من الحواس و هو حاكم فيه ، وعلم غير ماخوذ منها و هو محكوم فيه ، كما أن الحواس محكومة فى حسّها .

(٣) العقل أقرب إلى الشك فى علمه الماخوذ ، فان جل أمره الاستقراء . وأبعد عن الشك فى علمه الذى لم يأخذ منها ، كما أن الحواس أبعد عن الشك فى ما تحس . فالكليات الأولية حس العقل فلا يشك فيها ، و الاستنباط عمله الخاص .

(٤) العقل مخرج الكليات من جزئيات معلومة ، و إذا نظرت إلى سعة معارف العقل مع أنها مبنية على جزئيات ، اعترفت بشرف العقل . ولكفى للعقل شرفا بأنه لا يقلد الجزئيات ، وليس همه إلا الكليات الحاكمة على الجزئيات . فالعقل لا يرضى بفعل جزئى إلا أنه يومن بعلة كلية لذلك الجزئى و لا يمكنه الانخلاع عنه .

---

(١) لم يتقل هنا أستاذنا الامام رحمه الله ما أراد من كتابه « العقل و ما فوق العقل» . لعله أخره لوقت آخر و لم يتات له . فراجعت إلى الكتاب ، لعلى أجد ما اشار إليه ، لكننى لم أجد فيه إلا الاشارات . كالنصوص التى يختزنها المصنفون من قبل ، فاقتبست منها نصوصاً ، لعلها تهدينا إلى ما أراد رحمه الله تعالى. (الجامع)

(٥) العقل يعلم الاضافات و لا يعلم من المضاف إليه إلا هذا القدر فيقول بأن الصفات لها أعيان بها قيامها ، ولكنه لايعلم من تلك الاعيان إلا هذا القدر ، فيذعن بالهيولى ويحصر عن كنهه . وكذلك يذعن بالقوى و يجهل مستقرها . فعباد العقل المسمون بالحكماء شاكون فى ماوراء العقل و لكنهم يقولون ما لا يوقنون به .

فمنهم من يقول أنه ليس للعالم الخارج وجود و منهم من يقول انه ليس للدرك وجود حتى أن بعضهم فراراً من هذه الاباطيل تشبث بحكم العقل العام و لكنه لم يأت ببرهان على صحة العقل العام .

(٦) العلم بالشئ لا يستلزم الاحاطة به ، بل لا احاطة فيه . إنما تعلم و تحس بطرف من الشئ فتصوره ببعضه .

(٧) الشئ ، شئ سواء كان محدوداً أو غير محدود . و إن الوجود الخارج ليس بمستلزم أن يكون الشئ محدوداً . و إن الوجود الخارج هو التشخص ، فالتحديد ليس من لوازم التشخص . فالمتشخص قسمان : محدود و غير محدود .

(٨) إلى ما فوق العقل طرق عديدة :

منها ضرورة المعلوم إلى ما فوقه كعدم تناهى الزمان والمكان ، و وجود العلة للعلول ، و وجود المحل للصفات . . . . . .

ومنها أن تجعل ما فوق العقل قريباً إلى التعقل بالمثال و هذا طريق التفهيم لاطريق الاثبات . (انتهى من كتاب العقل و ما فوق العقل) . . .

فاذا علمت أن العقل لاسبيل له إلى علم جزئيات نعيم الدار الآخرة و عذابها ، و هما فوق حواسنا كما تنادى به آيات كثيرة إلا أن يصورها

كلياً . فاذا حاول ذو تخيل تصور تلك الحالات بأن يجعلها مشخصة كذب بها كالذين كذبوا بكون الاشجار فى النار و قالوا استهزاءاً : ماذا أراد الله بهذا مثلا فان ذلك مما لا يتمثل فى خيالنا . و لكن الذين رسخوا فى العلم و علموا حدود المدارك اذعنوا لها على سبيل علم كلى ، و انتزعوا عن أمثلة النعيم و العذاب صفات عامة كالالم الشديد من النار ، و القهر والجبر من المسدو العمد ، و المهانة من وسم الخرطوم و شواء الوجوه و رهق القترة . واستعمل هذه العبارات على أسلوب كلام العرب ، فلم يجادل فيه إلا السفهاء المستهزؤن بغياً و سفاهة .

فهذا عندى هو المنهج الواضح فى فهم المتشابهات من غير أن نحاول تاويلها أى تشخيصها و هذا هو مذهب كثير من أهل العلم . فى لسان العرب : « المتشابهات هى الآيات التى نزلت فى ذكر القيامة و البعث ضرب قوله : (و قال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق انكم لفى خلق جديد افترى على الله كذبا أم به جنة) و ضرب قوله : (و قالوا ء إذا متنا وكنا تراباً و عظاماً ء إنا لمبعوثون أو آباؤنا الأولون) فهذا الذى تشابه عليهم ، فاعلمهم الله الوجه الذى ينبغى أن يستدلوا بها على أن هذا المتشابه عليهم كالظاهر لو تدبروه فقال : (وضرب لنا مثلا و نسى خلقه قال من يحيي العظام و هى رميم ؟ قل يحيها الذى أنشأها أول مرة و هو بكل خلق عليم الذى جعل لكم الشجر الأخضر ناراً فاذا أنتم منه توقدون أو ليس الذى خلق السماوات و الأرض بقادر على أن يخلق مثلهم) أى إذا كنتم أقررتم بالانشاء والابتداء فما تنكرون من البعث والنشور ؟ وهذا قول كثير من أهل العلم . و هو بين واضح . و مما

يدل على هذا القول قوله عزوجل : (فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة و ابتغاء تاويله) أى أنهم طلبوا تاويل بعثهم و احيائهم ، فاعلم الله أن تاويل ذلك و وقته لا يعلمه إلا الله عزوجل و الدليل على ذلك قوله : (هل ينظرون إلا تاويله يوم ياتى تاويله) . يريد قيام الساعة و ما وعدوا من البعث والنشور والله أعلم ، انتهى النقل من لسان العرب .

و لكن مثل المتشابهات أمور ، لا حرج فى تاويلها فانها ليست بمظنة للفتنة الا يغلو فيها غال و يسلط الوهم على عقله . و نتمم هـذا البحث بذكرها . و بيان السبيل فى تاويلها .

فاعلم أن فى القرآن ذكراً من صفات الناس من غير تصريح اسماء الذين هم الموصوفون بها ، و كذلك تلميحات إلى بعض الوقائع . والحكمة فى تعميم هذه الصفات أو اختيار التلميح على التصريح فى مواقعها . تظهر على من يتامل و يرى أن ذلك أبلغ فى الهداية واسلم من الجمود فى أمور الدين . ولكن من تتبع الآيات وسرح النظر فى التاريخ ، ربما لمح له مصداق الصفة العامة ، فتعينت له الواقعة الخاصة فيزداد بذلك فهما لرباط الكلام و مواقع السور و الآيات و محاسن النظام ، و ليس ذلك مما نص عليه القرآن و الخلاف فيه ليس من اختلاف الأمة الذى حذرنا الله تعالى عنه و المشاجرة فيه أتم ، و قد رأينا السلف فيه مختلفين من غير نكير ، و لا رد بعضهم بعضاً . والمسلك المامون تطبيق أقوال السلف كاختلافهم فى موقع آية شق القمر والتطبيق واضح : فان كل واحد رأى حيث كان ، فمنهم من رأى القمر الثابت على قبيس ، و منهم من رأه على جبل حرا ، و كذلك الفلقة الساقطة منه رأوها حسب مناظرهم . . . . . .

(١٥)

الأصول التى تهدى إلى معنى واحد(١)

أصل (١)

إذا كثرت وجوه التاويل فى آية ، كان الأمر كاشتراك اللفظ . و الحاكم عند اشتراك اللفظ موقع استعماله . فهكذا عند اشتراك الوجوه فى آية لا سبيل إلا بالنظر إلى موقع الآية . و من ههنا ظهرت شدة الحاجة إلى النظام و علة الاختلاف الكثير . لأنهم لا يراعوا النظام فتهافتوا على الروايات ، فخبطوا فى العايات . (يجوز عند الشافعى و الباقلانى و جماعة من المعتزلة أن يراد بالمشترك كل واحد من المعانى) .

و من ذلك موقع السورة فان فى العلم به نوراً و هدى .

أصل (٢)

العلم بخصائص أسلوب القرآن ـ فان كل ذى كلام له فى كلامه أساليب تخصه . فان لم تراعها وأولته حسب ما تعودت به أخطأت معناه .

فمن أساليب القرآن الايجاز . و من الايجاز أنه يجيب الفرق المختلفة بجواب عام لاشتراكهم فيه . و فى ذلك حكمة ، و هى أن المرء يتنبه لخطأ غيره ، لاسيما فى أمور المذهب ، لشدة التعصب والجدال حتى انهم يفرون عن كل ما اتخذ غيرهم فاذا وجدوا فى مذهبهم خطأ مثل ما فى مذهب غيرهم ، كانوا أقرب إلى الفهم . ففى هذا الأسلوب ايجاز و ابلاغ . مثال ذلك فى سورة الانعام والزخرف فخاطب المشركين وأهل الكتاب بكلام

(١) هذا العنوان منى . قد وجدت هذه الأصول مبثوثة فى المخطوطة فرأيت أن أجمعها ، فجمعتها تحت هذا العنوان . فان أصبت فبتوفيق ربى و إن أخطأت فمن نفسى والله اعلم بالصواب (الجامع)

يعمهما مع كناية الفرق . وكذلك اشرك بين اليهود والنصارى كثيراً فى سورة البقرة وغيرها . و من ذلك العلم بخصائص أساليب كلام العرب .

. . . . . .

أصل (٣)

إذا احتمل كلمة أكثر من معنى واحد ، سألنا هل هذه الكلمة أجدر بهذا المعنى من غيرها ؟ فان وجدنا كلمة أخرى أجدر و أقوم و تركهـا القرآن ، علمنا أن القرآن لا يترك ابين الكلام و أقومـه ، فتركنا ذلك المعنى وأولناها إلى ما هى أصوب له . مثل قوله تعالى : (وعلى الذين يطيقونه) فى معنى المستطيع كما ذهب إليه صاحب حجة الله البالغة . فان الاطاقـة يستعمل فى القوى الجسمانية كما قالت الخنساء :

ع و صبرا أن اطقت و لم تطيق .

و كما جاء فى القرآن : (و قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت)

وهذا ليس كما قالوا ان الحقيقة أولى من المجاز فاثبتوا اليد والاستواء، و إنمـا مرادنا أن لا نأول الكلام إلى معنى كان حقه أن يعبر عنه بكلام غير ما جاء به القرآن . و بهذا الأصل احتج الشـافعى رحمه الله خلاف تاويل ابن عينية لحديث : « من لم يتغن بالقرآن » فانه كان يقول : « يستغنى به » . فسئل الشافعى رح عن هذا فقال : نحن أعلم بهذا ، لو أراد به الاستغناء لقال « من لم يستغن بالقرآن » و لـكن لما قال : « من لم يتغن بالقرآن » علمنا أنه أراد به التغنى .

(زاد المعاد ج ١ ص ١٣٩)

أصل (٤)

١ : الموافقة بالآيات الاخر .

٢ : و الموافقة بالكتب السابقة . (أنظر المقدمة فى مطابقة القرآن بالصحف الأولى)

٣ : و الموافقة بالعقل و البرهان .

٤ : و الموافقة بما ثبت من تاريخ الأمم الخالية و سنة الله تعالى بعباده . فبعض التاويل منكر شاذ ، فلا يعبأ به كما قيل فى آية : (ياعبادى الذين أسرفوا) و (الا المودة فى القربى) و (وابتغوا إليه الوسيلة) وغيرها . . . . . .

من افاداته رحمه الله :

لابد من النظر فى ما أنزل قبل القرآن لفوائد :
منها التذكر و الانتفاع بالنصائح .
و منها تقوية النقد و التميز بين الحق و الباطل .
و منها فهم اشارات القرآن بالتفصيل .
و منها توجيه الأمور إلى صحيح التاويل .
و منها علم فضيلة الناسخ على المنسوخ .
و منها الموانسة بالرفقاء الصالحين .
و القرآن حث على النظر فيها لما أمرنا بالايمان بها . و لما ذكر ما جاء فيها حسب ما ورد فى القرآن كما قال : (و لقد كتبنا فى الزبور الآية) و قال : (فى صحف ابراهيم و موسى) و قاله : (أم لم ينبأ بما فى صحف موسى و ابراهيم الذى وفى ان لاتزر وازرة وزر أخرى) . . . .

(١٦)
طريق الفهم للمعنى المراد

١ — تاويل القرآن بالقرآن

قالت العلماء قديماً ان القرآن يفسر بعضـــه بعضاً و ذلك بأن ذلك ظاهر جداً . فان القرآن يذكر الأمور بعبارات مختلفة مرة اجمالا وأخرى تفصيلا . فما ترك فى موضع ذكره فى موضع آخر . و قد صرح القرآن بهذه الصفة التى فـــيه فى غير موضع ، فهذا أصل راسخ . و لكن قل استعمال هذا الأصل و ذلك بأن طرق الدلالة على المعـانى غير محصورة فربما تدل آية على معنى يكون دليلا على معنى فى آية أخرى ، و ربما يدل اقتران آيتين أو جملتين على معنى خفى بعض الخفـاء ، فان بينا طرق هذه الدلالات تيسر استعمال هذا الأصل .

من افاداته رحمه الله :

قد قيل قديماً ان القرآن يفسر بعضه بعضاً وهو المراد بالتفسير بالنظائر . فلابد من ذكر أمثلة لذلك .

و الاصل المرعى فى ذلك هو الدلالة على أمور مختلفة ، فالمعنى الواحد يخرج فى عبارات شتى . فمنها قوله تعالى : (فسبح بحمد ربك بالعشى و الابكار) فهذا واضح فى تعيين بعض الاوقات . و قال فى موضع آخر : (فسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس و قبل الغروب و من الليل فسبحه و ادبار السجود) و قال فى موضع آخر : (فسبح بحمد ربك حين تقوم و من الليل فسبحه وادبار النجوم) و قال فى موضع آخر : (فسبحان الله حين تمسون و حين تصبحون . و له الحمد فى السماوات و الأرض و عشياً و حين تظهرون) و قال فى موضع آخر : (فاصبر على ما يقولون ★

٢ — رعاية نظم الكلام

(١) فى الكلام يكون الاشتراك فى الالفاظ ، و الحذف ، والمقدر، والتعريض ، والاشتراك فى الاساليب المختلفة من جهة تعدد دلالاتها مثلا فى الأمر و الاستفهام و العطف دلالات مختلفة . فبعد العلم بجميع دلالات الكلمات و أساليب البيان يمعن النظر لفهم ما هو المراد ؟

و لتعيين المعنى المقصود من المعانى المحتملة فى الاشتراك أصول خاصة . وكذلك لتعيين المحذوف و المقدر و المعرض به أصول وأرسخ هذه الاصول و اجمعها النظم . فلنذكر طرفا منه .

★ و سبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس و قبل غروبها و من آناى الليل فسبح و اطراف النهار لعلك ترضى) و قال فى موضع آخر : (و أقم الصلوة طر فى النهار و زلفاً من الليل ان الحسنات يذهبن السيآت) و قال فى موضع آخر : (أقم الصلوة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر ان قرآن الفجر كان مشهودا و من الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا) .

و منها و هو غامض قوله تعالى : (خلق الموت و الحيوة ليلوكم ايكم أحسن عملا و هو العزيز الغفور) فى الموت زاجر و واعظ و فى الحيوة جالب إلى اللذات و الابتلاء لا يكون الا بهما . فلولا الشهوات لم يغفلوا و لم يزلوا و لولا الموت لم يتنبهوا و لم يستعدوا لما بعد الموت . و قد هديت إلى هذا المعنى ثم لمح لى نظيره و هو قوله تعالى : (انا جعلنا ما على الارض زينة لها ، لنبلوهم أيهم أحسن عملا . و انا لجاعلون ما عليها صعيداً جرزاً) فى الأول ذكر الجانب الذهنى و فى الثانى ذكر الجانب الخارجى . فتامل .

(١) من تفسيرَ القرآن بعضه بعضاً قوله تعالى : (حجارة من طين) و فى موضع آخر : (بحجارة من سجيل) .

(٢) الصلوة استعانة بالله كما أمر موسى عليه السلام قومه : (استعينوا بالله واصبروا) و فى موضع آخر : (واستعينوا بالصبر والصلوة) .

(٢) نظم الكلام يدل على ما هو المقدر المفهوم ، فان الكلام ربما ينتظم بما هو المفهوم اشارة أو اقتضاء . و للمقدر اسباب يعرف بها ، فمنها تعيين المخاطب وسبب الخطاب مثلا : (أتى أمر الله فلا تستعجلوه سبحانه و تعالى عما يشركون . ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشآء من عباده ان انذروا انه لا إله إلا انا فاتقون . خلق السماوات و الأرض بالحق تعالى عما يشركون . خلق الانسان من نطفة فاذا هو خصيم مبين و الانعام خلقها لكم فيها دفء و منافع و منها تاكلون . و لكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون وتحمل اثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلابشق الانفس إن ربكم لرؤف رحيم) « سورة النحل آية : ١ ـ ٧ » فان نظرت من جهة النظم تبين لك المقدرات و هى كما نذكر :

(أتى أمر الله (أى ما أنذركم به رسله) فلا تستعجلوه (أيها المنكرون به و المشركون لغفلتكم عن الآخرة ورعاية الحق و الحكمة المبنية على صفة الرب من الرحمة و العدل) سبحانه و تعالى عما يشركون (به هولآء المنكرون بالرسالة التى تنبئهم على لزوم الجزاء من جهة ربوبيته . . .

. . . . . .

من افاداته رحمه الله :

آخر الآى كثيراً ما ينبه على ما سبق مثلا قوله تعالى : (الذين ينفقون فى السراء و الضراء و الكاظمين الغيظ والعافين عن الناس و الله يحب المحسنين) فدل على بعض تفصيل للاحسان . و فى آخر الآيات دلالات أخر .

٣ — جامع لابواب الاجمال

للكلمة و الكلام وجوه ، و لابد من تعيين المراد فى كل موضع . و هى هذه :

(الف) ربما يستعمل اللفظ كالاسم و الرسم لشئ ، و لا نظر بالخصوص إلى معنى اللفظ . مثلا : القرآن ، المومن ، المسلم ، الكتاب ، المتقون ، الكافرون ، وما أشبه ذلك ربما يستعمل كالاسم من غير نظر إلى المعانى اللفظية أى المدلول عليه من جهة مادته وصورته .

(ب) وربما يكون النظر إلى معناه اللفظى مثلا : المتقون لمن كان تقياً خاشعاً .

(ج) وربما يراد به الفرد الكامل .

(د) وربما يراد به العموم المطلق .

(ه) وربما يراد به الخصوص .

(و) وربما يراد به العموم مع أولية النظر إلى خصوص .

من افاداته رحمه الله :

الكلمة ربما يراد بها اللازم ، و ربما يراد بها الفرد الكامل ، وربما يراد بها بعض ما تضمنته . أما اللازم فكقوله تعالى : (فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا) فالمراد من النسيان عدم الالتفات . و من هذا الباب قوله تعالى : (فاذكرونى أذكركم) . . .

الكلام قسمان : حكم و انشاء .

و قصارى الحكم ، العلم : اثباتاً أو نفياً .

و قصارى الانشاء ، الحركة : رغبة أو نفرة .

و علم من هذا أن مرادنا من الحكم و الانشاء غير مراد النحويين . فرب انشاء لتاكيد الحكم كالاستفهام و القسم .

واعلم أن الحكم والانشاء بامر ، ربما يتعدى إلى غيرها لاشتراك العلة أو اختلافها ولذلك أصول.

ثم اعلم أن الكلام مركب من الكلمات ، والكلمة ربما تدل على كل معناها ، وربما تقتصر عنه ، و ربما تتعداه . و لذلك أصول من اللسان ، و العقل ، و باقى كلام المتكلم .

و اعلم أن المجاز كالحقيقة و كلاهما ظاهر المعنى و بناؤهما على اللسان و باقى الكلام . . . .

(ز) وربما يراد به المعنى الجامع مطلقاً .

(ح) وربما يراد به المعنى الجامع مع أولية النظر إلى وجه خاص .

. . . . . .

٤ — فى الألفاظ

(١) اللفظ يسع نطاقه أو يضيق كماً ، وكيفاً ، و زماناً ، و يعرف المراد بنظمه . مثلا : آمنوا و عملوا الصالحات ، و أقاموا الصلوة و آتوا الزكوة ، فالايمان ههنا هو المجمل والاعتقاد لمقابلته بالعمل ، والعمل الصالح هو المعروف لمقابلته بالأحكام الشرعية من الصلوة و الزكوة . و هذا تاويل أظهر لكون المقابلة أقرب إلى الفهم . والتاويل الثانى تفصيل الاجمال، فالايمان على هذا ما يشمل الاعتقاد و العمل ، فذكر العمل الصالح تفصيل و العمل الصالح ما يشمل الخيرات . فذكر الصلوة والزكوة تفصيله . وهذا مثال الكم .

و أما الكيف فاذا أريد الايمان الراسخ الشامل للاعتقاد والعمل مثلا : (إنما المومنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم الآية) .

و أما زماناً فاذا أريد به الدوام عليه وذلك حيث يناط به الثواب و العقاب و هذا كثير مثلا : (فمن اتقى و أصلح فلا خوف عليهم و لا هم يحزنون) .

من افاداته رحمه الله :

الحاجة الشديدة إلى معانى الالفاظ المفردة و أنحائها . فان الناس قد اختلفوا فى العقائد لمحض عدم اطلاعهم على استعمال اللفظ الواحد على وجوه كثيرة . مثلا : اسم القرآن و كلام الله وتكليمه. فالكلام صفة فى المتكلم سواء تكلم أو لم يتكلم كالخلق و العطاء .

ثم اسم الكلام يطلق على فعل المتكلم إذا تكلم . فهذا الكلام حادث و فى زمان . والأول قديم .

ثم يطلق الكلام على مفعول هذا الفعل . ثم كلام الله بهذا المعنى يبقى عليه هذا الاسم و إن تكلم به غيره ثم يبقى عليه هذا الاسم إذا عبر عنه بالكتابة كما يسمى كل كتاب مع كثرة نسخته و يضاف إلى مصنفه . . . . .

(٢) كل حكم فرع على موصوف فالمراد هو الحكم المشروط بشرط القيام على الصفة مثلا : (و يضل الله الظالمين) و (و يحب الله المحسنين) و هذا ظاهر . و منه : (إن الذين كفروا سواء عليهم ء أنذرتهم أم لم تنذرهم لا يومنون) .

و أيضاً يؤل حسب الكيف أى الذين بلغوا الجمود التام و أصروا . و يمكن الجمع بين التاويلين أى ماداموا على الاصرار . و فى ذلك يجمع الكيف و الزمان . . . . . .

٥ — فى معنى جامع لوجوه

(١) معنى جامع لوجوه كما قال تعالى : (خلق الانسان هلوعا إذا مسّه الشر جزوعا وإذا مسّه الخير منوعا) فالهلوع جامع و هو ضيق الذرع . وقال تعالى : (و الصابرين فى الباساء و الضراء و حين الباس) فالصبر جامع ، و هو تثبت النفس و استقامتها .

و القرآن ربما يبين الوجوه بعد المانع ، و ربما يبينها فى مواضع مختلفة . كبيانه الاسلام و الايمان .

(٢) الفرق بين الجامع والمشترك . إن المشترك إنما يرادبه احد معانيه ، و أما الجامع فربما يراد به أحد الوجوه نصاً ، ولجهة النظم والباقى اشارة . والجامع كقوله تعالى : (. . . الله أحد ، الله الصمد) فكلمة «أحد» جامعة لكل ما تدل عليه من اللوازم . ومحض وجود المعنى الجامع الذى انشقت منه المعانى ، لا يخرج اللفظ عن المشترك ، مثل الكتاب للوحى والشريعة و العهد ، أو القطيعة لجماعة من الغنم وقطع الرحم . أللهم إلا إذا أمكن الجمع بين الوجوه دخل فى الجامع ، فحينئذ يكون الفرق دقيقاً .

أيضاً فى الجامع يكون دلالة اللفظ بالذات على معنى جامع ، و فى المشترك ربما يكون الماخذ جامعاً و لا التفات إليه . مثلا «العصر» مشترك بين آخر النهار و الزمان الماضى ، و الماخذ جامع . و لكن اللفظ لا يشير بدلالته على أحد معانيه إلى معناه الآخر كما دل فى الصبر ، فكان المشترك منقطعة بعضها عن بعض فلا يجمع ، و فى الجامع بقيت الوصلة .

(٣) قال تعالى : (كتاب مبارك ليدبروا آياته) «مبارك» أى كثير الحكمة و الخير . دلنا على هذا التاويل لفظ مبارك و نظمه . فالتدبر هو النظر فى وجوه الكلام و الانتقال من بعض إلى بعض ، حتى يفتح عليه أبواب من الحكم . و كذلك دلنا عليه كلمة « آياته » فانها تشير إلى معان جمة ، فان الآية هى أم الفكرة و الاستدلال كما قال : (سنريهم آياتنا فى الآفاق و فى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) أى الجزاء حق . وكذلك آيات القرآن تدل على طريق الاشارة كما قال تعالى : (و يتفكرون فى خلق السماوات و الأرض ، ربنا ما خلقت هذا باطلا . سبحانك فقنا عذاب النار) أى خلق السماوات و الأرض آية على الحكمة . و الحق هذا آية على وقوع الجزاء . و لذلك هتف القائل بحمده و استعاذه . و مثل ذلك قوله تعالى : (أو لم ينظروا فى ملكوت السماوات و الأرض الآية) . .

من افاداته رحمه الله :

الجامع الوجوه ربما يخص ببعض وجوه معناه خصوصية ما، فيراد ذلك الوجه عند الاطلاق دون التقيد . مثلا يستعمل الايمان و الكفر و المعية وغيرها عند الاطلاق مخصوصاً بوجه و عند التقييد حسب القيد . فقوله تعالى : (و الله معكم) مراده أنه تعالى نصيركم و كذلك قوله تعالى : (اقترب) فى آخر سورة العلق معناه قرب الرحمة للقرينة و لتخصيصه عند الاطلاق . و ليس كذلك فى قوله تعالى : (ونحن أقرب إليه من حبل الوريد) فانه ليس للرحمة بل لمحض العلم كما دلت عليه القرينة .

٦ — وجوه الالفاظ و المعانى

للالفاظ وجوه من الاثبات و النفى ، و الخبر و أقسام الانشاء ، و الاسمية و الفعلية . ثم من كون الفعل ماضياً ، و جارياً ، و مستقبلا . و من كونها مبتدأ ، و خبراً ، و حالا ، و تمييزاً وغير ذلك من كونها جزء للكلام و كذلك كونها حقيقة ، و مجازاً ، و عاماً ، و خاصاً . . .

و هكذا الأمر فى الألفاظ الخاصة . و قد ذكروا بعض هذه الأمور فى علم البيان و أصول الفقه و النحو و لكنهم لم يستقصوها . فهذه وجوه الألفاظ .

ثم لهذه الوجوه دلالات شتى . مثلا : الفعل يدل تارة على بدء العمل ، و تارة على استمراره ، و تارة على اكماله .

أو الاستفهام تارة يدل على الاستخبار ، و تارة على الاثبات ، و تارة على النفى ، و تارة على الأمر .

و هكذا الأمر فى الخبر وغير ذلك فهذه وجوه المعانى .

فلابد للتاويل من الاطلاع على جميع هذه الوجوه لكى يفهم صحيح المراد .

و قد رأينا كثيراً من الاختلاف قد نشأ من قلة المعرفة بهذه الوجوه مثلا : (إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايومنون) فقوله تعالى : (كفروا) يدل على الاستمرار و الرسوخ أى الذين ألحوا على الكفر و رسخوا فيه . و هذا الاستعمال عام فى الماضى مثلا قوله تعالى : (كان الله غفوراً رحيما) يدل على دوام كونه غفوراً رحيما . و هكذا فى قوله تعالى : (إن الانسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا

الصالحات) أى الذين استمروا على الايمان وعمل الصالحات . فالمراد من قوله تعالى (إن الذين كفروا سواء عليهم الآية) هم طائفة خاصة من اليهود و مشركى مكة ، ثم من يكون على صفتهم .

ثم النظر فيه إلى الكفر بالبعث ، فالذين كفروا بالبعث و اصروا عليه ليسوا بمومنين بهذا الكتاب . فان الانكار بالأصل انكار بالفرع . فعن هولاء اخبر الله تعالى ان الله ختم على قلوبهم بكفرهم كما قال : (بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يومنون إلا قليلا) ثم ليس هذا إلا بيان سنة الله تعالى فى ربط الآثار بالموثرات . ثم ليس هذا إلا خبراً عن عامتهم ، فان موثراً فوق موثر ولذلك قال تعالى : (فلا يومنون إلا قليلا) . . . .

٧ — وجوه الاثبات و النفى

للاثبات و النفى وجوه مختلفة فى الجملة الفعلية و الاسمية كلتيهما . أما الفعلية :

(١) فربما ينفى الفعل لعدم وقوع الاثر و يثبت لابتداء العمل . كما ترى فى القرآن : (و ما يومن أكثرهم بالله الا و هم مشركون) و يشبه ذلك نفى الفعل عن الفاعل لعدم قدرته على ايقاع الاثر . كما ترى فى القرآن : (وما رميت إذ رميت) فنفى من وجوه و اثبت من وجه آخر .

و يشبه ذلك نفى الفعل لعدم بلوغه حداً يعبأ به . كقوله تعالى : (قل لم تومنوا و لكن قولوا اسلمنا و لما يدخل الايمان فى قلوبكم) أى لم تومنوا بايمان تستحقون أن تدعوا به ، فانه لم يدخل قلوبكم إلى الآن و إن كان قد قرع على بابه فان لفظ « لمّا » يشير إلى ما قلنا .

و يشبه ذلك نفى الفعل لأجل عدم الأثر أو النفع . كما قال تعالى :

(نسوا الله فانسلهم) و الله تعالى لا ينسى و لكنهم غفلوا فلم يعبأ الله بهم عند احتياجهم الشديد إلى رحمته و نظره . و هذا من باب دلالة الالتزام و الكناية .

و يقابل ذلك نفى الفعل للدلالة على عدم الموثر للفعل . كقوله تعالى: (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة و لما يعلم الله الذين جاهدوا منكم و يعلم الصابرين) «سورة آل عمران آية ١٤٢» والله قد علم بما هم يفعلون و لكنه متى لم يفعلوا جعله بمنزلة ما لم يعلم منهم كما هو يسمع دعاءنا إذا دعوناه و قد علمه قبل أن نتكلم به - - - - - - - - -

٨ — مفهوم الاثبات من النفى و بالعكس

إذا كان بين الأمرين تضاد و تناقض ، فما يثبت لأمر ينفى من ضده كما قال تعالى : (إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب و يشترون به ثمناً قليلا أولئك ما ياكلون فى بطونهم إلا النار و لا يكلمهم الله يوم القيامة و لا يزكيهم ولهم عذاب اليم) «سورة البقرة آية ١٧٤» فلاشك إن الذين هم خلاف هذه الصفة أو ما ينوب منابها فى جلب سخط الله ، فهم الذين يكلمهم الله يوم القيامة و يزكيهم . وهكذا ما جاء فى المكذبين: (كلا انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) «سورة المطففين آية ١٥» فعلمنا أن المومنين ليسوا من المحجوبين عن ربهم يوم القيامة . . . . . .

٩ — وجوه فى اطلاق الفعل

(١) اطلاق الفعل على بدء الفعل كما قال تعالى : (واما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى) «سورة فصلت آية ١٧» وقال تعالى : (انا هديناه السبيل إما شاكراً و إما كفورا) « سورة الانسان آية ٣ »

(٢) اطلاق الفعل عـــلى نتيجته كما قال تعالى : (و عصى آدم ربه فغوى) «سورة طه آية ١٢١» فكان العصيان من آدم عليه السلام لما فعل خلاف ما أمر به ربه . و لـكنه فعل ما فعل لمـا نسى أمر الرب كما قال تعالى: (ولقدعهدنا إلى آدم من قبل فنسى و لم نجد له عزماً) «سورة طه آية ١١٥» .

(٣) و يشبه الثانى اطلاق الفعل أو الصفة لما يقع حسب الاذن و الأمر كما يقال : بنى الملك جسراً و انمـــا بنى بامره . و من هذا الباب ما يتبع فعل العبد من الضلالة و الهداية كما قال تعـالى : (بل طبع الله عليها بكفرهم) . و من أمثلته : (إنما أنت منذر من يخشاها) و منها : (أولئك الذين آتيناهم الـكتاب) و منها : (لهم قلوب لا يفقهون بهـا و لهم أعين لا يبصرون بها و لهم آذان لا يسمعون بها) . فانهم إذ لم يبلغوا بقلوبهم وأعينهم وآذانهم ما هو المقصد الاهم منها ، فكانهم لم يفقهوا شيئاً و لم يبصروا و لم يسمعوا . . . . . .

١٠ — الفرق فى اطلاق الاسم و الصفة و الفعل

الاسم يطلق على الاكمل ، ثم الصفـــة ، ثم الفعل . و قد أخطأ الامام الشافعى رحمه الله فى معنى كلمة « المحصنات » لأنه رحمـــه الله تعالى لم يفرق بين اطلاق الاسم و الفعل . . . . (١)

(١) لعله أراد ما قال الامام الشافعى فى رسالته المشهورة فى أصول الفقه « وها هو ذا . (الجامع) « واحصان الأمة اسلامها. و إنما قلنا هذا استدلالا بالسنة و اجماع أكثر أهل العلم . و لما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا زنت أمة أحدكم فتبين زناها فليجلدها ، و لم يقل محصنة كانت أو غير محصنة . استدللنا على أن قول الله عزوجل فى الاماء: « فاذا احصن فان اتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب » إذا اسلمن لا إذا نكحن فاصبن بالنكاح و لا إذا اعتقن و إن لم يصبن » (ص ٢١) (١)

(١) قول الامام رحمه الله « ان احصان الأمة اسلامها » بعيد جداً . و الاستدلال بالسنة و الاجماع على ما قال الامام رحمه الله غير تمام (من الفراهى رحمه الله)

١١ — اطلاق الحكم على العام

العـام ربما يعتبر من حيث عمومه و حينئذ اطلاق الحكم عليه يكون من هذه الحيثيـــة . كقوله تعالى : (الاعراب أشد كفراً و نفاقا) فهذا الحكم عليهم من حيث مجموعهم .

و ربما يطلق الحكم على العام و يتناول كل فرد منهم . كقوله تعالى: (هدى للمتقين) أى لكل فرد من المتقين .

فلابد من النظر فى نسبة الأمر إلى عام هل هى إلى الجميع من حيث المجموع ، أو إلى أفراده ، أو إلى فرد خاص .

ومن أمثلة الاختلاف بين المفسرين من قبل هذا الباب ان قوله تعالى: (كنتم خير أمة أخرجت للناس تامرون بالمعروف و تنهون عن المنكر) « سورة آل عمران آية ١١٠ » عند بعضهم يعم كل فرد و لذلك أولوا قوله تعالى : (و لتكن منكم أمة يدعون إلى الخير و يامرون بالمعروف و ينهون عن المنكر) « سورة آل عمران آية ١٠٤ » إلى العموم . و جعلوا كلمـــة « من » للبيان .

و عند بعضهم ان كلمة « من » للتبعيض ، فلم يلزموا كل فرد الأمر و النهى .

ثم يمكن أن تكون « من » للبيان على هذا التاويل أيضاً . فان الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر ينسب إلى جميع الأمـــة إذا قام به من هو أهل له .

ثم يمكن أن يلزم الأمر و النهى كل فرد بأن يجرى حكمه على اتباعه حسب حديث : « كلكم راع و كلكم مسئول » . فالنزاع يرفع عـــلى كلا التاويلين ، و لكن الفرق بينهما بيّن . . . .

١٢ — اطلاق الحكم على ذى صفة

الحكم على الأشخاص ليس كالحكم على الذى ذُكر بالصفة ، فان الحكم يتعلق به من حيث تلك الصفة .

و من الصفات ما تزول ، فيزول الحكم كقوله تعالى : (إن الذين كفروا سواء عليهم أ أنذرتهم أم لم تنذرهم لا يومنون) فهذا الحكم منوط بكفرهم و الكفر ربما يزول و كذلك الايمان كما قال تعالى : (الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم و حسن مآب) « سورة الرعد آية ٢٩ »

و أما الصفات التى ليست بزائلة فالحكم المبنى عليها لا تزول مثلا قال تعالى : (و السابقون الأولون من المهاجرين و الأنصار و الذين اتبعوهم باحسان رضى الله عنهم و رضوا عنه وأعدلهم جنات تجرى تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً . ذلك الفوز العظيم) . « سورة التوبة آية ١٠٠ » فصفة السبق و الهجرة غير زائلة فكذلك الرضى .

فان زعم معاند بأن الله تعالى رضى بهم ثم سخط ، مع أن الذى يعلم علم اليقين بمستقبل الأمر لا يرضى بمن يعلم سوء عمله ، فنفى هذه المظنة بقوله : (أعدلهم جنات) .

ثم إن قال معاند ان الله تعالى عدل ، فيجازيه خيراً لخيره و شراً لشره فنفى ذلك أيضاً بقوله : (خالدين فيها أبداً) و كل ذلك تاكيد و سد لافواه المبطلين الزائغين . . . . .

١٣ — مما يتعلق بالكلمات المطلقة الجامعة

(١) الكلمة إذا كانت مطلقة و تكون مختصة أيضاً، حملت على المعنى المخصوص بالذات ، و على المعنى العام اشارة فتكون جامعة مثلا : (المتقين) و (و الذين كفروا) نص على قوم أخبر الله عن أحوالهم و اشارة إلى كل متصف بهذين المعنيين .

(٢) المخبر عنه إذا عبر عنه بصفة فالحكم يكون مختصاً بالمخبر عنه حسب الصفة . مثلا : الحكم بأنهم لا يومنون فى قوله تعالى : (إن الذين كفروا سواء عليهم أ أنذرتهم أم لم تنذرهم لايومنون) مختص بالمخبر عنهم حسب تلك الصفة . و على ذلك يكون الحكم مخصوصاً بحسب المورد نصاً و بحسب الصفة عاما .

من افاداته رحمه الله :

(١) هل فى أخبار الله تعالى عن قوم أنهم لا يومنون اجبار ؟ كلا ! بل الاخبار مثل العلم غير مجبر . إن ما أخبر به علم منهم .

(٢) هل فى فعل الحتم اجبار ؟ نعم و لكنه بعد فعلهم و جزاء و لزوما .

(٣) ما النسبة بين المحكوم عليه و الحكم ؟ نسبة الأثر و المؤثر .

(٤) كيف نسبة فعل الحكم إليه تعالى ؟ إما من جهة المنع أو ايقاع الأثر .

نسبة الفعل إلى البارى تعالى لدلالة الفعل على النتيجة كما قال : (أ أنتم تزرعونه أم نحن الزارعون) و النسبة إلى المتمم أولى كما قال : بنى الأمير الحصن . و فتح البلدة . و نحوها ما جاء فى القرآن : (ما تشاؤن إلا أن يشاء الله) .

للاية تاويلان : الأول أنه خطاب إلى الكفار . و الثانى أنه خطاب عام .

فالمعنى أن مشية الخير الخاص و هو الانتفاع بالقرآن موقوف على توفيق الله تعالى . و توفيق الله يكون حسب عمل العبد و حسن جهده و خضوعه . فان الله تعالى قد أخبر عن أحوال الظالمين أنهم لا يتيسر لهم الرشد فقال تعالى : (سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون) وأمثال ذلك .

أما التاويل بالقدر ، فليس من القرآن فى شئ ، بل القرآن قد أبطله حيث تمسك به المشركون.

و من ههنا ضرورة التضرع ، و الدعاء ، و الخشية من الخذلان ، و التوكل على الله ، و اليأس من غيره . و منشأه منه الحب لله تعالى . . . . . (منه رحمه الله)

(٣) قول ابن عباس رضى الله عنه فى الآية مبنى على ما أخبر الله عن كفر اليهود فى السورة ، ثم عنه قول آخر مثله و هو مبنى على ما جاء فى التوراة . و قول الربيع بن أنس مبنى على اختصاص الكلمة بمعنى أراد منه و على حسن النظم من حسن التقسيم . . . .

١٤ — الفرق بين الحقيقة المطلقة و الحقيقة المصطلحة

رب مجاز فى الحقيقة المطلقة صار حقيقة فى اللغة ، و الناس إنما يخاطبون حسب لغتهم ، فمن خاطب أخاه بما لا يفهم فقد ظلمه و فتنه . فلا يجوز لك أن تقول حقاً يورث باطلا إلا فى دونه . مثلا تقول : « ما رأيت زيداً » بمعنى انك إنما رأيت الضوء المنعكس منه و هو ليس بزيد . أو تقول : « ما سمعت كلام زيد » بمعنى انك انما احسست بتموج فى مادة حركها كلام زيد . أو تقول : « ليس فى صحيح البخارى شئ من قول الرسول » بمعنى أن ما فيه نقله لا أصله . أو تقول : « ليس بيدى مال » بمعنى أن يدك خالية و إنما المال فى ملكك .

فاذا أردت أن تدل على حقيقة الأمر ، تبين لهم بكلام يفهمونه . و حينئذ يجوز لك القول بالحقيقة المطلقة .

و هذا من جهة اللفظ . ثم من جهة المعانى رب معنى صادق يكون أرفع من فهم المخاطب فيكذبه و لا ينتفع به ، بل يسئ بك الظن فلا يستمعك . و قد كان يمكنك أن تعلمه لو خاطبته بما هو مستعد لقبوله (و لا يكلف الله نفساً إلا وسعها) و هكذا الأمر فى الأعمال .

و من هذا الاصل الواضح يتبين لك أن أكثر الاختلافات فى العقائد مبنية على الذهول عن هذا الفرق . . . . . .

١٥ — وجوه الكلام وتاويله

للكلام وجوه من الوصل و الفصل ، و التقديم و التاخير ، والزيادة و الحذف ، و الاجمال و التفصيل ، و الاقتصار و البيان . و لكل ذلك دلالات ، فهذه وجوه المعانى فى تاويل الكلام . و الطفه و أدقه تاويل الحذف . فان من يرد المحذوف لابد أن يكون بصيراً بمعنى الكلام وحكمته ، ورباط معانيه ، وعموده ، وصحيح الرأى فى باقى الكلام ، لكيلا يثبت رأياً منكراً ، أو يميل إلى تاويل ساقط . و لابد أن يكون عالماً بحقائق الوقائع المتعلقة ، و فارقا بين الثابت و الضعيف . .

١٦ — البيان و الايهام

لابد للكلام من الاجتناب عن الايهام . فلا يوخذ بمعنى محتمل من جهة الاسلوب الممكن ، إذا كان الاصلح لذلك المعنى غير العبارة . مثلا : (ذلك بأن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم و أهلها غافلون) أى بظلم منهم و لم يرد ظلماً . و لو اراد ذلك لقال ظلماً . . . .

١٧ — فى تقدير المحذوف

أخطأوا كثيراً فى تقدير ما لم يذكر . فمنها قوله تعالى : (أفمن زين له سوء عمله فرأه حسناً فان الله يضل من يشاء و يهدى من يشاء فلاتذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون) ، سورة الفاطر آية ٨ ، أى أفانت تهدى من أضله الله على علم و ختم على سمعه و قلبه وجعل على بصره غشاوة ، فمن يهديه من بعد الله ؟ أفلا تذكرون . . . . . .

من افاداته رحمه الله :

من الكلام ما هو المهيج و غايته التاثير من الترغيب و التكريه و التشويق و التخويف وغير ذلك فما كان كذلك من الكلام لابد فيه من تمثيل الأمور ، و تقريب البعيد ، وجعل المعقول محسوساً. و لا سبيل إلى ذلك إلا باستعمال انواع البيان من ضرب المثل و المجاز . . . . . .

١٨ — حمل الكلام على غير الظاهر المحسوس

(١) ربما يتضمن الكلام الحق ما هو خلاف الظاهر المشهود و إنما يتضمن ذلك لما أن من سنة اللسان استعمال المجاز . و لما أن الكلام الموثر لابد فيه من استعمال فنون المجاز من التمثيل وجعل المعقول محسوساً .

و أهل الظاهر يكرمون المجاز لظنهم أنه لا يصار إليه إلا عند احالة الحقيقة ، و لشدة ولوعهم باخذ الظاهر انهم ربما اثبتوا الأعضاء و أفعالها للرب تعالى . و ليس ذلك بانهم لم يطلعوا على كثرة استعمال المجاز و لا لضرورته ، بل انما انكروها لمنع القول بالهوى و هم مصيبون فى ذلك ، فانهم خافوا أن الهوى له سلطان عظيم على من قلت خشيته .

و قد رأوا ولوع الناس به - - - - - - - -

١٩ — الزيادة على الشئ ربما تكون تكميلا

قال تعالى : (و واعدنا موسى ثلاثين ليلة و اتممناها بعشرفتم ميقات ربه أربعين ليلة) . « سورة الاعراف آية ١٤٢ »

الوعد كان لطفاً من الرب تعالى، فزاد على قدر الموعود اتماما وتكميلا.

و من ههنا نرى اكثر الشرائع من الله تعالى تكميلا لغايتها .

و من ههنا نرى السنة اتماما للفرائض .

و من ههنا نرى غسل الرجلين اتماما لغاية المسح و هى التطهير .

(و من السنة ما لاسبيل إلى تركه إلا عند الاضطرار لما فيها من الحكمة . والفرض أقل ما كلفنا به) . . .

٢٠ — وجوه النظم

ترتيب الكلمات عند العطف لا يخلو عن دلالة و قد استدل العلماء به و إنما يقدم ما يقدم لوجوه :

(١) لظهوره ، فانه أقرب إلى الفهم .

(٢) و لكونه مجملا ، فانه أسهل احاطة .

(٣) و لكونه مفصلا ، فان المجمل ربما يؤخر للذكر .

(٤) و لشرفه و بهائه و تقدمه اعتناء به ، وهذا فى الاحكام كقوله تعالى: (حرمت عليكم أمهاتكم و بناتكم الآية) و هذا فى الترتيب الصاعد .

(٥) و لكونه أدون لقربه و دنوه و هـذا فى الترتيب الهابط . كقوله تعالى : (فانظر إلى الابل كيف خلقت الآية) و فى الآية ترتيب دورى من الهابط إلى الصاعد ثم إلى الهابط .

(٦) و للتقدم الزمانى ، كقوله تعالى : (إن الله اصطفى آدم و نوحا و آل ابراهيم و آل عمران على العلمين) .

(٧) و لكونه خاصاً ، لأنه أبين على الأكثر .

(٨) و لكونه عاما ، لأنه أبين أحياناً .

(٩) و لتعود الناس بذكره أولا لبعض الوجوه .

(١٠) و لكونه تبعاً لما قدم لبعض الوجوه .

(١١) و سهولة تلفظه كقوله تعالى : (خلق الموت و الحياة)

و ربما يترك بعض الوجوه ببعض ، و يشتبه بعضها عند من لا يتدبر مثلا قالوا : ان السمع أفضل من العقل لقوله تعالى : (وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير) «سورة الملك آية ١١ » فظنوه من الباب

الرابع و لكنه من الباب السادس . فان الانسان يعلم بالسمع أولا ، ثم إذا بلغ الرشد يرجع النظر فيما سمع ، فيحكم بما عقل . كما قال تعالى : (قل هو الذى أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون) « سورة الملك آية ٢٣ » و مثله قوله تعالى : (إن السمع و البصر و الفواد كل أولئك كان عنه مسئولا) « سورة الاسراء آية ٣٦ » فان الفتنة كثيراً ما تاخذ بالسمع ، ثم يطمح إليها البصر ، ثم تتسلط على الفواد . و فيه جمعت أبواب أخرى من جهات مختلفة - - - - - - - -

٢١ — مواقع التدبر

(١) ما جاء فى القرآن من القصص فالمقصود منه العبرة . و ذلك يحوج إلى التدبر فى موارد التطابق بينها و بين أحوالهم . و على هذا فلابد من استخراج تفاصيل المطابقات مثلا ذكر قصة طالوت فى موقع حث الناس على الجهاد ، فعلم الصحابة موارد المطابقات حتى العدد و فى هذه القصة مطابقات أخر و قد أشار القرآن إليها . فهكذا لابد من النظر فى جميع القصص .

(٢) من مواقع التدبر : ما تبدل فيه القرائن فى النظائر . فان ذلك يدل على حدود الكلمات و نسبة بعضها إلى بعض مثلا : (و تواصوا بالصبر و تواصوا بالمرحمة) و نظيره : (و تواصوا بالحق و تواصوا بالصبر) فما النسبة بين الحق والمرحمة ؟ و بحسب جواب هذا السوال يكون تاويل الحق فى الآية .

و منه يستدل على حدود معانى الكلم . مثلا جاء فى موضع : (الذين آمنوا وعملوا الصالحات) و فى موضع : (الذين صبروا وعملوا الصالحات)

و فى موضع : (إن شكرتم و آمنتم) فما النسبة بين الايمان و الصبر و الايمان و الشكر ؟

و مثلا جاء فى موضع : (ما خلقت الجن و الانس إلا ليعبدون ما أريد منهم من رزق و ما أريد أن يطعمون . ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين) و فى موضع آخر : (و أمر أهلك بالصلوة و اصطبر عليها لانسئلك رزقا نحن نرزقك و العاقبة للتقوى) فدلت القرينة على أن المراد بالعبادة هو الخشوع للرب تعالى . و جماعه الصلوة . و قد دل على ذلك آى أخر .

(٣) كما تدل القرائن فى النظائر فكذلك تدل القرائن فى نفس الآية إذا أختير كلمة فى المقابلة عوض المقابل الظاهر مثلا : أختير المرض عوض الكفر فى مقابلة الايمان . أو الاستغناء فى مقابلة التقوى . فهذا التعويض يدل على حدود اللفظ و النسبة بين المعنيين و نبين ذلك بالأمثلة :

(الف) قال تعالى : (فاما الذين آمنوا فزادتهم ايماناً و هم يستبشرون و أما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم و ماتواوهم كافرون) فعلم أن المرض و الرجس عبارتان عن الشك وأيضاً أن الايمان هو الشفاء و الطهارة .

(ب) قال تعالى : (فاما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى و أما من بخل واستغنى و كذب بالحسنى فسنيسره للعسرى) - - - - - - - - (بياض فى الأصل)

(١٧)

الاصول للتاويل

الأصول ثلاثة : (١) أصول أولية . (٢) وأصول مرجحة . (٣) وأصول كاذبة اعتمدوا عليها و ليست بشئ ، إنما نذكرها للاجتناب عنها .

فالأصول الأولية : ما يتمسك به حيث لا احتمال لمعان شتى .

و الأصول المرجحة : يتمسك بها إذا احتمل الكلام معانى مختلفة . فاذا اعملنا الأصول المرجحة أخذنا ما هو الراجح و تركنا المرجوح .

١ — فمن الأصول الأولية :

(الأصل الأول)

التمسك بنظم الكلام و سياقه . و هذا ليس من المرجحات . فان الكلام لا يحتمل معنى يخالف نظمه و رباط معانيه ، فان خلل النظم منفى عن كلام العقلاء ، فما أبعده عن كلام الله المعجز ؟ و هذا أصل ظاهر . و لكن أهل الزيغ سعوا فى هدمه و وضعوا الأحاديث ففتنوا بها الضعفاء العقول من صالحى المومنين عفا الله عنهم فان الاعمال بالنيات . و من امثلة ذلك تاويل آية التطهير ، فانها لم تنزل و لا تتعلق إلا بامهات المومنين و لا دخل فيه لغيرهن و الكلام لا يحتمل تعميمها .

(الاصل الثانى)

المعنى الشاذ لا يلتفت إليه . و إنما لم نجعله من المرجحات ، فان اللفظ الحسن المصون ، ربما يستعمل عوض الظاهر العامى . ولكن اللفظ

إذا استعمل ، لابد أن يدل على مفهومه المعلوم الثابت ، فان أريد به مفهوم ينكره الناس و يدعيه مدع و لا سبيل إلى اثباته ، فهذا تعمية . و القرآن أنزله الله عربياً مبيناً فلاى شئ يترك الافصاح ؟

وأما المطالب العالية ، فليست من هذا الباب فان الكلام فيها واضح فى مفهومه ، والمطالب العالية إنما هى منطوية تحت المفهوم غير مضاد ولا مناقض للمفهوم . و من أمثلة ذلك تاويل قوله تعالى : (فان تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما) فسعى المبطلون فى تحويل معنى الصغو إلى الزيغ و وضعوا لتاويلهم الباطل قرأة باطلة لم تثبت فضلا أن تكون متواترة .

(الأصل الثالث)

فهم الكلام بعضه من بعض بالمقابلة وحمل النظير على النظير . وذلك هو التاويل بالقرآن .

القرآن كثيراً ما يترك مجملا ما فصله فى مقام آخر ، و المعنى يفهم من غير أن نحتاج إلى تفصيله من نفس الكلام . مثلا فى أواخر سورة الانفال جاء : (إن الذين آمنوا و هاجروا و جاهدوا باموالهم و أنفسهم فى سبيل الله) و بعيد ذلك جاء : (و الذين آمنوا و هاجروا و جاهدوا فى سبيل الله) فلم يذكر بأموالهم وأنفسهم وهو مفهوم . ثم جاء بعيد ذلك : (و الذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم) فلم يذكر فى سبيل الله و لا بأموالهم و أنفسهم و لكن ذلك مفهوم ، و قد دل عليه « معكم » .

و هذا باب وسيع يهدى إلى كثير من المعانى . مثلا جاء فى أوائل سورة البقرة : (إن الذين كفروا سواء عليهم أ أنذرتهم أم لم تنذرهم لا يومنون . ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة و لهم

عذاب عظيم) . ففهمنا من (الذين كفروا) من كفر بالله و صفاته من العدل ، ولذلك كفر بالجزاء . وفهمنا من (لايومنون) أنهم لايصيرون مومنين و مهتدين بهذا الكتاب . و ذلك مما سبق من قوله تعالى : (ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للتقين الذين يومنون بالغيب) (أى يومنون قبل يوم الشهود) فالذين كفروا هم ضد هولاء . و قد ذكر عيون صفات المومنين فى ما سبق حتى قال : (أولئك على هدى من ربهم و أولئك هم المفلحون) ثم ذكر الذين هم مخالفون لهولاء .

وإنما دعانا إلى هذا التاويل أن المبتدأ والخبر لابد من الفرق بينهما . ثم وجدنا فى السياق ما يكشف عن المفهوم . ثم التمسنا نظائر هذه الآية فوجدناها موافقة لما فهمنا و ذلك أوائل سورة يٰس .

و أيضاً قوله تعالى : (وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك و بين الذين لا يومنون بالآخرة حجاباً مستوراً و جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه و فى آذانهم و قرا و إذا ذكرت ربك فى القرآن وحده و لوا على ادبارهم نفوراً) «سورة الاسراء آية ٤٥، ٤٦» فاخبرنا القرآن بأن من أشرك بالله وأنكر بالآخرة لا يسمع و لا يفقه القرآن و يتنفر منه . . . . . .

من افاداته رحمه الله :

حمل النظير على النظير

إذا كان الكلام محتملا لتاويلات مختلفة ، فالمصير إلى ما له نظير فى القرآن أحوط . فان ما هو ليس فى القرآن ربما يكون راياً محضاً و ضلالة . و إما ما كان له نظير فى الحديث فلابد من صحته رواية و دراية . ثم المصير إلى النظير الذى فى القرآن أوثق . ومثال ذلك الشذوذ فى الحديث فالتاويل إلى معنى شاذ مع امكان غيره و مع دلالة أصول أخر ، بعيد عن الصواب . . . .

تذكرة :

النظائر تفسر بعضها بعضاً

و ذلك أصل راسخ . فانه جماع فهم القرآن بنفسه ، فلنذكر طرق التدبر فيها و الانتفاع بها .

(الف) أظهر المجمل و المقدر أولا ، بالنظر فى نظم الكلام وحسن التاويل . فذلك يدلك على المطابقة بين النظيرين ، و يصير دليلا آخر على تعيين المجمل و المقدر . فان ما هو مجمل أو مقدر فى موضع ياتى مبيناً و مظهراً فى موضع آخر كما هو أسلوب عام فى القرآن .

(ب) فاذا اطلعت عـــلى التطابق بين الكلامين ، انظر السابق و اللاحق أى نظم الكلام ، فان لكل كلام نظما مناسباً و ليس من اللازم أن يكون النظم للنظيرين واحداً ، و لكن ربما يكون بين النظمين تشابه من بعض الوجوه . . . . . .

من افاداته رحمه الله :

و لحمل النظير على النظير أصول

(١) إن احتملت الكلمة أو الجملة تاويلين ، والنظائر كذلك محتملة ، فلا يويد ذلك تاويلا خاصاً إلا إذا كان أحد التاويلين راجحاً ، فاذا كثرت أمثلة للتاويل الراجح كان فى كثرة النظائر دليل و إلا تساوى التاويلان . مثال ذلك كلمة « القرآن » إلى المجموع ، أو الى المتلو . فالتاويل الى المجموع لا يصح ، أن جمعت النظائر وجدت معنى المتلو صحيحاً فى كلها ، و ارجح فى بعضها ، وغير مشارك فيه فى أخرى (٢) . . . . .

---

(١) النظيران اما مكرر و هو قليل . فالسابق و اللاحق لهما مظنة التشابه .
و اما متشابهان ، فما يتضمن احدهما ربما يكون متشابهاً او اصلا لما فى نظيره ثم ربما يكون متشابه السابق و اللاحق أو أحدهما .

(٢) من قسم النظائر ما بينهما التقابل . . .

تذكرة :

فى تعيين المجمل

ربما يتضح من سوق الكلام ما هو المراد من المجمل ، مثلا قوله تعالى : (حم . تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب و قابل التوب شديد العقاب ذى الطول لا إله إلا هو إليه المصير . ما يجادل فى آيات الله إلا الذين كفروا (ما هو المراد بآيات الله و بالكفر ؟) فلا يغررك تقلبهم فى البلاد . كذبت قبلهم قوم نوح و الاحزاب من بعدهم و همت كل أمـــة برسولهم لياخذوه و جادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فاخذتهم فكيف كان عقاب . و كذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار . الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم و يومنون به و يستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شئ رحمة و علماً فاغفر للذين تابوا و اتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم ربنا و ادخلهم جنات عدن التى وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم انك أنت العزيز الحكيم . وقهم السيآت و من تق السيآت يومئذ فقد رحمته و ذلك هو الفوز العظيم . إن الذين كفروا ينادون لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون إلى الايمان فتكفرون (الايمان باى شئ والكفر باى شئ ؟) قالوا ربنا امتنا اثنتين و احييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل ؟ ذلكم بأنه إذا دعى الله وحده كفرتم و إن يشرك به تومنوا فالحكم لله العلى الكبير . هو الذى يريكم آياته و ينزل لكم من السماء رزقا و ما يتذكر الا من ينيب . فادعوا الله مخلصين له الدين و لو كره الكافرون).

فتبين أن المراد من الكفر ههنا هو الكفر بالتوحيد، و من الجدال بآيات الله هو الجدال بالآيات الدالة على التوحيد من قبل انعامه العام . و من الجدال بالباطل و ادحاض الحق هو الجدال بالشرك و ادحاض التوحيد . و باقى السورة يؤيد ذلك. . . . . .

(الأصل الرابع)

(١) لابد من النظر فى المخاطب .

و من ههنا يتبين وجه الكلام و لهجته من التسلية ، و الرافة ، و الزجر ، و الغضب ، و الوعد ، و الوعيد ، و الاستدلال ، و الوسعة ، و الغور . . . . . (بياض فى الأصل)

٢ — و من الأصول المرجحة

(الأصل الاول)

عند اختلاف الوجوه و الاعتبار يوخذ ما كان أوفق بالمقام وعمود الكلام

اعلم أن ما من كلمة الا لها أطراف وجهات فهى كالمعانى لها . وكذلك كل أمر و قصة لها اعتبارات شتى . و كما أن اللفظ المشترك يأول حسب محله فكذلك لابد أن نأول الألفاظ و الأمور حسب محلها . مثلا صفة الاحدية الكاملة مختصة بالله تعالى ، و مع ذلك نرى ذكره تعالى باسماء مختلفة وعلى ترتيب متغاير . مثل : (رب الناس ، ملك الناس ، اله الناس) و مثل : (رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين) و مثل : (الملك ، القدوس ، العزيز ، الحكيم .) و مثل : (العزيز ، الغفور) و مثل : (الملك ، القدوس ، السلام ، المومن ، المهيمن ، العزيز ، الجبار ، المتكبر) فمن لا يتدبر القرآن لا يلتفت إلى محل الكلمات و لا يجتهد لفهم

جهة الكلمة . و لكن البصير المستبصر لا يمكنه ترك التدبر لما يظهر له بعض الجهات الظاهرة فتجلبه إلى ما وراءها .

فان صح لديك هذا الأصل يسهل لك التدبر فى ترتيب اسماء الرسل و الأنبياء ، فمع أن درجاتهم مختلفة ، ترى ذكر اسماءهم على أنواع من الترتيب . فان تدبرت فى محلها وقفت على اشارات غامضة ولم يلتبس عليك موقعها . و كذلك ترى الاشارات الخاصة فى ترتيب القصص والاحكام .

فالحاصل ، ان الاشارات و الاعتبارات للشئ تلتمس من المحل مثل ما يفعلون بالمشترك ، فكان الاصل الاول ان النظم يقضى عند الاحتمالات . و نتيجة هذا الاصل ان لا يلزم أن تقصر اللفظ على معنى واحد إذا كان غير مشترك ، كما يقول بعض أهل الرأى . فان للفظ مجازاً ، و حقيقة ، و عموماً ، و خصوصاً ، و جهات لمعناه مختلفة . و يستعمل فى كل ذلك حسب مقتضى المقام .

(الأصل الثانى)

إذا كان الكلام ذا احتمالات ، توخذ منها ما كان لها نظير فى باقى القرآن . فما لم يوافقه قرآن غير ما فيه النزاع يترك . مثلا قوله تعالى : (إن الله يحول بين المرء و قلبه و إنه إليه تحشرون) . فيه تاويلان :

الأول : انه تعالى اعلم بضمائركم منكم . و الثانى : إنه يعوق المرء عن ارادته .

فالأول له نظير فى القرآن ثم يعضده النظم ، فان النظم أيضاً يأول إلى ما كان أشبه بالقرآن . فقوله : (تحشرون) يأتى مع التقوى و التقوى

يأتى مع علم الله و هذا كثير . فكانه قيل : اتقوا الله فانه اعلم بسرائركم و انكم تحشرون إليه . فهذا من جهة تشابه المعنى و النظم .

و أما التاويل الثانى فبناؤه على تشابه لفظى فانه جاء فى القرآن : (و حيل بينهم و بين ما يشتهون) . أى منعوا عن مشتهاهم .

و هذا أيضاً أصل لكنه أضعف مما ذكرنا . فان اللفظ المشترك يأتى لمعان مختلفة و لا يقضى فيه إلا بالسياق وصحة المعنى . مثلا كلمة (أمة) فى قوله تعالى : (إن ابراهيم كان أمة) لا تؤول إلى معنى أريد به فى مواضع أخر ، فانه لا يلتئم بالسياق و لا صحة المعنى . و المعنى المراد ههنا لا نظير له من جهة اللفظ . فان الامة فى باقى القرآن : اما لمدة من الزمان ، أو لطائفة من الناس ، أو للطريق . و لكن إذا تمسكنا بالأصل الأول و الثانى اتضح معناه :

أما الأصل الأول ، فان كلمة « قانتا » بعدها تفسيرها . فان الامة هو الطائع بتمامه و هو أوفق بالقانت .

و أما الاصل الثانى ، فلوجود نظائره لما جاء فى صفاته من الطاعة الكاملة . و لكن بقى علينا بيان أن الامة هو الطائع . فان الجمهور من أهل اللغة قد خفى عليهم هذا المعنى و لكنهم قد قاربوه . (أنظر كتابنا مفردات القرآن) .

(الاصل الثالث)

إذا كان المعنى مقتضياً لعبارة غير ما فى الكلام ، فذلك المعنى مرجوح.

و استدلت عائشة رضى الله عنها بهذا الاصل و الامام الشافعى رح فى بيان معنى التغنى بالقرآن - - - - - - - - - - (بياض فى الاصل)

(الاصل الرابع)

هو الأخذ باحسن الوجوه

المراد باحسن الوجوه ما كان أولى بمعالى الأمور ، ومكارم الأخلاق، و أوضح إلى القلوب ، و أوفق بمحكمات القرآن ، و أحسن ظناً بالله و رسوله ، و أظهر بياناً من جهة العربية .

الأخذ باحسن الوجوه ليس من التفسير بالرأى ، إذا كان مراعياً لأصول التاويل الأولية ، و يرجح على الروايات فان أكثرها آراء من أهل التاويل ، ربما لم يهتدوا إلى ما كان أحسن . وهذا ابن جرير رحمه الله مع اعتنائه بالروايات ياخذ بما يراه أحسن تاويلا ويترك الرواية .

و دونك أمثلة :

الأول فى قوله تعالى : (لقد كان فى قصصهم عبرة لاولى الألباب) سورة يوسف آية ١١١ قال ابن جرير رحمه الله :

«يقول تعالى ذكره لقد كان فى قصص يوسف ع واخوته عبرة لاهل الحجى و العقول يعتبرون بها و موعظة يتعظون بها . و ذلك أن الله جل ثناءه بعد أن القى يوسف فى الجب ليهلك ، ثم بيع بيع العبيد بالخسيس من الثمن ، و بعد الاسار و الحبس الطويل ملكه مصر و مكن له فى الأرض و أعلاه على من بغاه سوأ من اخوته ، و جمع بينه و بين والديه واخوته بقدرته بعد المدة الطويلة ، وجاء بهم إليه من الشقة النائية البعيدة ، فقال جل ثناؤه للمشركين من قريش من قوم نبيه محمد ﷺ لقد كان لكم أيها القوم فى قصصهم عبرة لو اعتبرتم به ، إن الذى فعل ذلك بيوسف واخوته لا يتعذر عليه أن يفعل مثله بمحمد ﷺ ، فيخرجه من بين أظهركم ثم يظهره عليكم

و يمكن له فى البلاد و يؤيده بالجند و الرجال من الاتباع و الاصحاب و إن مرت به شدائد و أتت دونه الايام و الليالى و الدهور و الازمان . و كان مجاهد يقول معنى ذلك : « لقد كان فى قصصهم عبرة ليوسف و اخوته » .

ثم ذكر الرواية عن مجاهد بطرق ثم قال :

« و هذا القول الذى قاله مجاهد و إن كان له وجه يحتمل التاويل ، فان الذى قلنا فى ذلك أولى به ، لان ذلك عقيب الخبر عن نبينا ﷺ وعن قومه من المشركين وعقيب تهديدهم ووعيدهم على الكفر بالله وبرسوله محمد ﷺ و منقطع عن خبر يوسف و اخوته . و مع ذلك أنه خبر عام عن جميع ذوى الالباب أن قصصهم لهم عبرة من (غير) خصوص بعض به دون بعض ، فاذا كان الامر على ما وصفت فى ذلك فهو بأن يكون خبراً عن انه عبرة لغيرهم . و الرواية التى ذكرناها عن مجاهد رواية ابن جريج (قوله لقد كان فى قصصهم عبرة لاولى الالباب قال : يوسف و اخوته) أشبه به ان تكون من قوله ، لأن ذلك موافق القول الذى قلناه فى ذلك . »

من افاداته رحمه الله :

دخل الجهل و الخبط لقلة التمييز و ضعف الفرق . فقالوا فى الوجوه هذا يمكن . و فى الخبر ، أى حرج فى ذلك . فابطلوا الميزان . و قال تعالى : (و أنزل الكتاب بالحق و الميزان) و قال : (يستمعون القول فيتبعون أحسنه) و قال : (جادلهم بالتى هى أحسن) . فما كان دونه يرد . قال تعالى : (و ماذا بعد الحق إلا الضلال) فلزم التثبت و القول الفصل . و وجب فى التفسير القول باحسن الوجوه . و وجب على المفسر معرفة الوجوه .

و لا يخفى أنه استدل فى ذلك بالنظم أولا و بالعبارة ثانياً . . . . . (بياض فى الأصل)

(الاصل الخامس)

(١)

هو الاخذ باثبت الوجوه لغة .

بمثل الاخذ باحسن الوجوه ، يكون الاخذ باثبتها فى اللغة . فان المعنى الذى كثر فى كلام العرب لا ينبغى تركه إلا لصارف قوى . فاذا تساوى الوجوه الاخر و هو النظم ، و الموافقة بباقى القرآن ، و صريح العقائد ، لابد أن نأخذ المعنى الشائع و مثاله معنى الشوى ، فانه لحم الساق عموما فى كلام العرب .

و قد أخطأ العلامة عبد القادر الدهلوى فى ترجمة قوله تعالى : (نزاعة للشوى) فظن أنه الكبد . والموقع ذكر دنو العذاب ، لادخول المنكرين فى النار . فان سياق الكلام هكذا :

(سأل سائل بعذاب واقع . للكفرين ليس له دافع . من الله ذى المعارج ، تعرج الملائكة و الروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين الف سنة فاصبر صبراً جميلا . انهم يرونه بعيداً و نراه قريباً . يوم تكون السماء كالمهل و تكون الجبال كالعهن و لا يسأل حميم حميما يبصرونهم . يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه و صاحبته و أخيه و فصيلته التى تؤويه و من فى الارض جميعاً ثم ينجيه . كلا إنها لظى . نزاعة للشوى . تدعو من ادبر و تولى . و جمع فاوعى) « سورة المعارج آية ١-١٨ » .

فهذا بيان الموقف ، يوم أزلفت الجنة للتقين و برزت الجحيم للغاوين

فليس لهم حميم . فحينئذ تدعو الجحيم الكفـــار و تخرج لظاهـا فتذهب بلحم سوقهم .

و اما انها تخرج اكبـادهم فليس هذا مما جاء فى شئ من القرآن حتى انهم حين يدخلونها لا تخرج اكبادهم و لا قلوبهم .

وكذلك أخطأ من أخذها بمعنى جلد الرأس . فان مجئ الشوى للحم الساق عام شائع . و لجلد الرأس جاءت الشواة فى قليل من الكلام مع احتمال معنى آخر . ثم لم يذكر فى القرآن و لا فى الحديث مجئ النار فى الموقف من فوق حتى إذا دنا واطل عليهم ، نزع جلدة رؤسهم . فلو تساوى المعنيان للشوى ، لكان الأخذ بما هو أوفق بالنظم و باقى القرآن احرى ، فكيف و المعنى غير معروف و غير معتمد عليه ؟

و من أمثلته و انحر فى قوله تعالى : (فصل لربك و انحر) فقالوا : أمر بوضع اليد على النحر و أيضاً قالوا : أمر برفع اليدين . و كل ذلك هوس . و مناسبة ذلك بالصلوة لا يغرن أحداً ، فان الامر بالاضحـــية أحسن مناسبة و أوسع . . . . . .

(٢)

الشاذ المنكر لفظاً يترك

قال الله تعالى : (الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله و أولئك هم أولوا الالباب) « سورة الزمر آية ١٨ » و قال تعالى أيضاً : (ذلك خير و أحسن تاويلا) « سورة الاسراء آية ٣٥ »

قد ذكرنا أن التاويل على أحسن الوجوه يختـار ، و تفصيل ذلك فى غير هذا الفصل . فبعد ذلك نقول ان اختيار أحسن الوجوه لابد أن

يكون موافقاً للغة و باقى القرآن . و لا يكون من التكلف . مثلا قوله تعالى: (لقد من الله على المومنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم) قيل فيه ان « أنفسهم » بفتح الفاء و هذا تاويل باطل . لكونه معنى شاذاً لان كتب الله ناطقة بكون الرسول من قومه . و هو أمر ظاهر . و لا عيب فى كون النبى من قومه و هو منهم .

ثم ليس ذلك من كلام العرب ، هم يقولون : هو من خيارهم وعليائهم و غير ذلك و لا يقولون من « أنفسهم » بفتح الفاء . ثم المنة تكون أكبر إذا بعثه منهم . ثم فى دعاء ابراهيم عليه السلام هو ان يبعثه الله منهم .

و الذين قالوا بذلك التاويل الباطل إنما أرادوا به سنداً لتاويلهم فى آية المباهلة حين أنكروا بها حقاً وأثبتوا باطلا .

و كذلك أخطأ الاشعريون والشيعة و بعض أهل الحديث فى تاويل كلمة « الذكر » فى قوله تعالى : (ذكراً رسولا) وكذلك فى معنى (الحكمة) لما أرادوا تعظيم الحديث .

قال ثعلب فى قوله تعالى : (فاليوم ننجيك ببدنك) أى بدرعك و ذلك أنهم شكوا فى غرقه ، فامر الله عزوجل البحر أن يقذفه على دكة فى البحر ببدنه أى بدرعه فاستيقنوا حينئذ أنه غرق .

و قال الاخفش : وقول من قال بدرعك فليس بشئ . و هذا ظاهر لان البدن لا يتبادر الذهن إلى فهم الدرع منه إلا بقرينة و لا قرينة هناك . ثم الرجل يعرف بجسمه وشكله لا بدرعه . ثم قوله تعالى : (لتكون لمن خلفك آية) - - - - - - - - - - -

٣ ــ الأصل الكاذب المعتمد عليه للناس

(١)

هل يأول الحديث إلى القرآن أم يعكس الأمر ؟

(١) كم من آيات القرآن ، ان تدبرت فيها و فهمت معناها وجدت من الاحاديث ما جاء موافقاً له . فالحديث لم يزد شيئاً على القرآن . و لكن صرح من الآية أمراً غامضاً يكاد يخفى على من لا يتدبر . مثلا فى آية الميراث ترى وصيتين : وصية من الله و سماها فريضة من الله ، و قال فيها : (آباؤكم و أبناكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعاً فريضة من الله إن الله كان عليما حكيما) «سورة النساء آية ١١» ووصية أخرى من الميت وجعل التقدم لوصية الميت .

و قد علمنا أن الله اعلم و احكم و وصيته اقدم ، فلابد ان تكون هذه وصية الميت لغير وارثيه من الخيرات . ثم ترى النبي عليه الصلوات صرح بذلك فقال : « الا لا وصية لوارث » .

و يفهم من ههنا ان الحكم إذا ناقضه حكم آخر ، خص بعضهما بعضاً حتى يرفع المناقضة . و إن حكم الله لا يرفع بما اذن للناس . . . . .

(٢) فهذا يؤيد ما فهمت من القرآن و لكن ههنا مزلة و خطر . وذلك انك قبل ان تفهم القرآن ، تتهافت على الحديث وفيه صحيح وسقيم فيعلق بقلبك من الآراء ما ليس له فى القرآن أصل و ربما يخالف هدى القرآن. فتاخذ فى تاويل القرآن إلى الحديث ويلبس عليك الحق بالباطل .

فالسبيل السوى أن تعلّم الهدى من القرآن وتبنى عليه دينك . ثم بعد ذلك تنظر فى الأحاديث ، فان وجدت ما كان شارداً عن القرآن

حسب بادى النظر ، أولته إلى كلام الله فان تطابقا فقرت عيناك . و إن اعياك ، فتوقف فى أمر الحديث و اعمل بالقرآن . و قد أمرنا أولا باطاعة الله ثم باطاعة رسوله و لا شك أن الأمرين واحد . فان لم يرد الله أن نقدم كلامه على ما روى عن الرسول فماذا أراد بهذا الحكم ؟ . . . . . (بياض فى الاصل)

(٢)

التفسير بالأحاديث

من الناس من يزعم أن التفسير اما أن يكون منقولا من السلف الصالحين أو يكون خلافه و هو بالرأى و الأول هو المعتمد و الثانى فهو المنهى عنه .

ثم استنتجوا من هذا أن المنقول و إن كان ضعيفاً أحق بالاتباع . وعلى هذا الأصل كتب كثير من التفاسير مثل تفسير محمد بن جرير الطبرى الذى قيل فيه أنه لم يصنف مثله و لا شك أنه كذلك فى بابه . و مثل تفسير البغوى و ابن كثير و السيوطى وغيرهم من المحدثين .

و هذا الذى زعموا قول عليه طلاوة الحق و فى طيه اباطيل مضلة ، من هوى فى هوتها لم يخرج منها إلا ما شاء الله و لا نتعرض لكشف هذه الاباطيل إلا بعد أن نذكر أمثلة عديدة من تفاسيرهم .

ذكر الطبرى فى تفسير قوله تعالى (و من أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه و سعى فى خرابها) ثلاثة أقوال :

الأول : ان الظالم قوم نصارى و المسجد بيت المقدس و روى هذا عن ابن عباس رضى الله عنه .

و الثانى : ان الظالم بخت نصر و من اعانه من النصارى وقال اولئك اعداء الله النصارى حملهم بغض اليهود عـلى أن أعانوا بخت نصر البابلى المجوسى على تخريب بيت المقدس وروى هذا القول عن قتادة و السدى .

والثالث : قول ابن زيد قال هولآء المشركون حالوا بين رسول الله ﷺ يوم الحديبية و بين أن يدخل مكة .

ثم بعد نقل هذه الأقوال بين ما هو أولى فقال :

« و أولى التاويلات التى ذكرتها بتاويل الآية قول من قال عنى الله عزوجل بقوله (و من أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه) النصارى . و ذلك لأنهم هم الذين سعوا فى خراب بيت المقدس واعانوا بخت نصر على ذلك ومنعوا مومنى بنى اسرائيل من الصلوة فيه بعد منصرف بخت نصر عنهم إلى بلاده و الدليل على صحة ما قلنا فى ذلك قيام الحجة بان لا قول فى معنى هذه الآية الا أحد الأقوال الثلاثة التى ذكرناها و ان لا مسجد عنى الله عزوجل بقوله (وسعى فى خرابها) الا احد المسجدين : اما مسجد بيت المقدس و اما المسجد الحرام و إذ كان ذلك كذلك و كان معـلوماً أن مشركى قريش لم يسعوا قط فى تخريب المسجد الحرام و ان كان قد منعوا فى بعض الأوقات رسول الله ﷺ واصحابه من الصلوة فيه ، صح و ثبت ان الذين وصفهم الله عزوجل بالسعى فى خراب مساجده غير الذين وصفهم الله بعمارتها إذ كان مشركو قريش بنوا المسجد الحرام فى الجاهلية و بعمارته كان افتخارهم و إن كان بعض افعالهم فيه كان منهم على غير الوجه الذى يرضاه الله منهم .

و اخرى ان الآية التى قبل قوله (و من اظلم ممن منع مساجد الله

ان يذكر فيها اسمه) مضت بالخبر عن اليهود و ذم افعالهم و التى بعدها نبهت بذم النصارى و الخبر عن افترائهم على ربهم و لم يجر لقريش و لا لمشركى العرب ذكر و لا للمسجد الحرام قبلها فيوجه الخبر بقول الله عزوجل : (و من أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه) إليهم و إلى المسجد الحرام و إذ كان ذلك كذلك فالذى هو أولى بالآية أن يوجه تاويلها إليه هو ما كان نظير قصة الآية قبلها و الآية بعدها إذ كان خبرها لخبرهما نظيراً و شكلا . . . . . .

. . . . . (بياض فى الأصل)

(٣)

تذكرة :

الظن بأن الاحاديث مفسرة للقرآن حمل الناس على أن يأولوه بها و لكن :

(١) اتفقت العلماء أن القرآن يفسر بعضه بعضاً ، فهذا لابد أن يكون راجحاً .

(٢) و إذا تعارض حديثان ، فيأخذون بأثبت ، فلم لا يفعل كذلك إذا تعارض القرآن و الحديث ؟

(٣) أو يوافقون بين المتعارضين إذا تساويا فى السند ، و القرآن أوثق سنداً فلابد أن يأول الأحاديث بالقرآن كما فى معنى أهل البيت تأول حديث المباهلة بأن فى الآية « ندع أبناءنا و نساءنا » فدعاهم النبى ﷺ كما أن مولى القوم و جارهم وخليلهم منهم ، فاولاد النبى وصهره أحق به .

و التفسير بحديث يناسب المقام ، إذا لم يقرر عقيدة و مذهباً مامون، و لكن مع ذلك ظنى . فآخذ به مع امكان غيره كما فى سورة الحجر : (المقتسمين الذين جعلوا القرآن عضين) روى أن الكافرين قالوا بعضهم لبعض استهزاءاً : انا آخذ البقرة و اعطيك المـائدة أو العنكبوت . فهذا المعنى مامون و لكن غير يقينى .

أما تصديقاً لآيات القرآن ، فنقل الأحاديث فيه أحسن شئ . و نذكر من التاريخ أيضاً موافقاً شاهداً على ما صرح به فى القرآن و أما فى غير التصريح فلا . - - - - - - - (بياض فى الأصل)

من افاداته رحمه الله :

من أسباب الغواية أنهم يغون الدلائل لمعتقداتهم ، فياخذونها من غير نقد فيجمعون الصحيح و السقيم .

ثم إذا كان المعتقد صحيحاً لا يالون بسقم ما يؤيده ، فيقبلون الباطل .

و ربما فراراً من أخذ الخصم يتجشون براى يصعب على الخصم تصوره . فيستحسنون اخلاقه و الباطل لا يومن شره فربما ينقلب عليهم ما استحسنوه .

* * * * * *